عِقابُ الذّنوبْ

تأليف

السيد هاشم الرسولي المحلاتي

ترجمة

محمد علي آذرشب

٢١٠

معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
في منظمة الاعلام الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحیم

عِقابُ الذّنوبْ

تأليف

السيد هاشم الرسولي المحلاتي

ترجمة

محمد علي آذرشب

٢١٠

معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
في منظمة الاعلام الاسلامي

الكتاب: عقاب الذنوب.

المؤلف: السيد هاشم الرسولي المحلاتي.

المترجم: محمد علي آذرشب.

الناشر: معاونية العلاقات الدولية في منظمة الاعلام الاسلامي
الجمهورية الاسلامية في ايران. طهران/ص ب ١٣١٣ ــ ١٤١٥٥.

المطبعة: سبهر. طهران.

التاريخ: الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.

طبع منه: ٥٠٠٠ نسخة.

كلمة الناشر:

هذا الكتاب دراسة نظرية وعملية للذنوب والمعاصي، ومحاولة أخلاقية قيمة لتطهير الفرد والمجتمع من عواقب الذنوب، وماهي الا الدمار والهلاك وذلك نظير ما تُحدِّثُنا عنه الآيات الكريمة من سورة (الفجر) إذ تذكر الامم المبتلاة بالمعاصي ثم تُحَدِّثُنا عن عواقبها معلنة ذلك بشكل قانوني **(فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد)**.

وما أحوج مجتمعنا اليوم لمثل هذه الدراسات الاخلاقية المربية خصوصا بعد أن نستعرض ما استطاع المستعمر الكافر ان يزرعه في وجود أمتنا الإسلامية من بذور العصيان، واللاأخلاقية التي لا تنسجم مع فكرنا وتصورنا وروحنا الاسلامية وان كانت طبيعية في إطار فكر غربي ملحد تائه.

و اذا كانت الثورة الاسلامية المباركة تنظر لهذه المسألة بكل اهتمام، وترصد الوضع التربوي العام بكل دقة، وتهيِّئ ما يحفظ له نقاءه وطهارته من دنس الذنوب والمعاصي، فانها تفعل ذلك ادراكا منها للأهمية التي يملكها تطهير الجوهذا في حركة الامة على طريق تكاملها وتحقيق اهدافها الكبرى.

والحقيقة هي ان صراعنا الثوري ضد الفساد الاخلاقي لايقل ضراوة عن

أي صراع آخر ضد أعداء الانسانية، والقوى العظمى الجشعة.

وكما انتصرنا بعون الله في المجالات الأخرى فاننا لنتوقع النصر الالهي في هذا المجال الحيوي الاخلاقي.

والله الموفق للحق والصواب.

معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
في منظمة الاعلام الاسلامي

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

عـالمنـا المعـاصر يشكـو من جدب روحي.. هذه حقيقة يرددها العلماء والمفكـرون اليـوم، ويـؤكـدون أنّ الأهـواء الجـامحة هـي التي تـتحكم في ساحة الأحـداث العـالمية، وقد تدفع البشرية في المستقبل القريب الى مأساة عالمية لايعلم أبعادها الا الله.

كـلما ابـتـعـدت الانسـانية عن تعاليم السماء ازدادت أهواؤها استفحالا، وشـهـواتها جموحا، وأخلاقها انتكاسا. والعلوم لا تستطيع انقاذ البشرية الضالة، بل قـد تجعلها أسرع في الانتكاس، وافظع في الافتراس. وقد يتحول المخلب والناب ــ بالعلم ــ الى قنابل ذرية وصواريخ عابرة للقارات.

وأمـام الخـطر المتفاقم في عالمنا يقدم الدين الالهي أطروحته لإنقاذ البشر، ولاستئصال جذور الشر من النفس الانسانية.

والاخـلاق تحـتـل الجـانـب الأهـم مـن أطـروحة الدين، بل ان الجوانب الأخـرى تـقـوم على أساس أخلاقي، ولذلك اهتم جميع المصلحين الدينيين أوّلاً وقبل

كل شيء بالجانب الأخلاقي في بناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة.

وما حث الامام الخميني على الجانب التربوي الاخلاقي الآ نموذج لاهتمام المصلحين الاسلاميين بعملية التغيير.

والتوجه الكبير في الجمهورية الاسلامية نحو تزكية النفس والتخلق بالاخلاق الاسلامية والعكوف في محاريب العبادة لاينفصل أبدا عن الاتجاه نحو معركة الهدم والبناء، وعن المرابطة في خنادق القتال.

وكتب الاخلاق أصبحت متداولة بين الشباب مثل كتب الاقتصاد الاسلامي والسياسة الاسلامية. وهذا الكتاب ــ الذي يرى القارئ الكريم ترجمته ــ واحد من هذه الكتب، نقدمه ليجد العربي فيه ما وجد أخوه الايراني المسلم من تهذيب وعظة، والله من وراء القصد.

محمدعلي آذرشب

جمادي الثاني ــ ١٤٠٥ هـ

القسم الاول

معنى الذنب

الذنب في اللغة هو الاثم والجرم والمعصية[١]. وفي الشريعة الاسلامية هو ارتكاب فعل منهي عنه، أو ترك فعل مأمور به[٢]. وان كان الشارع المقدس قد وضع لهذا الذنب عقابا دنيويا، فهذا الذنب هو (جناية) يستحق مرتكبها العقاب والقصاص[٣].

أما كلمة (الجريمة) فقد عرفها بعض الفقهاء بأنها مرادفة لكلمة (الذنب)، أي أنها كل المحظورات الشرعية سواء استوجبت عقابا دنيويا أم لم تستوجب[٤]. وعرفها آخرون بأنها المحظورات التي زجر الله عنها بحد أو تعزير[٥].

والقانون الوضعي قسم الذنب حسب شدته الى جناية، وجنحة، ومخالفة، وهو يعرّف الذنب بأنه خروج عن دائرة القوانين والمقررات الموضوعة لحفظ مصلحة الجماعة، وصيانة نظامها، وضمان بقائها.

وعبارة الخروج عن دائرة القوانين، نجد لها ما يشابهها في التعبير القرآني.

---

١ ــ لسان العرب، مادة «ذنب».

٢ ــ التشريع الجنائي في الاسلام، عبد القادر عوده، تعريف الجريمة.

٣ ــ تعليق السيد اسماعيل الصدر على كتاب عبد القادر عوده.

٤ ــ نفس المصدر السابق.

٥ ــ الاحكام السلطانية للماوردي، ص ١٩٢.

فالقرآن أطلق على هذا الخروج اسم «تعدّي حدود الله» [1].

والشريعة تتفق مع القانون الوضعي في أن الغرض من تقرير الجرائم والعقاب عليها هو حفظ مصالح الجماعة، وبقاؤها، وعلى الرغم من هذا الاتفاق هناك فروق نعرضها فيما يلي:

الفرق الأول

الجريمة في القانون الوضعي تطلق على الاعمال المحظورة التي تسيء الى مصالح المجتمع بشكل مباشر كالسرقة والقتل، أما الجريمة في التشريع الاسلامي فتشمل كل الاعمال التي تسيء الى مصالح المجتمع بشكل مباشر أو غير مباشر، فالرذائل الخلقية التي يمارسها الانسان لوحده، أو يضمرها في داخل نفسه، هي ذنوب أو جرائم في رأي الشريعة الاسلامية، لأنها تحط من قيمة الانسان وشرفه وكرامته، و بالتالي تؤدي الى انهدام المجتمع الانساني بشكل غير مباشر.

ثمة ذنوب تنخر في جذور المجتمعات البشرية وتهدد وجودها مثل الكذب والغيبة والتهمة والافتراء والغضب والحسد والرياء والحرص والتكبر والحقد لايعتبرها القانون الوضعي ذنوباً ولم يضع لها عقوبة، بل لا تستطيع يد القانون الوضعي أن تمتد الى مثل هذه الذنوب، بينما يتسع نطاق التشريع ليشمل كل ما تنطوي عليه النفس الانسانية وكل ما يصدر عن الانسان في خلواته.

فعلى سبيل المثال نرى الشريعة تقف موقفا صارما من الكذب، عن الامام محمد بن علي الباقر ــ عليه السلام ــ:

«ان الله عزّوجل جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب». [2]

وعن الامام الحسن بن علي العسكري ــ عليه السلام ــ:

«حُطّت الخبائثُ في بيتٍ وجُعِل مفتاحُهُ الكذب» [3].

---

١ ــ سورة النساء. ١٣ ــ ١٤.

٢ ــ جامع السعادات، النراقي، ج ٢، ص ٣٢٣.

٣ ــ المستدرك ، ج ٢، ص ١٠٠. وفيه: «تدعو الى الكذب فزال عنه...» وهي خلاف السياق فصححت. المصحح.

وروي أن رجلا جاء الى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله ــ فقال له:

«يا رسول الله دُلّني على عمل أتقرب به الى الله تعالى». فقال: **«لا تكذب»**: فكان ذلك سببا لاجتنابه كلَّ معصية لله لأنه لم يقصد وجها من وجوه المعاصي الاّ وجد فيه كذبا أوما يدعو الى الكذب فزالت عنه تلك المعصية». [1]

علماء الاجتماع والنفس اليوم يتحدثون عن أخطار الكذب وارتباطه بازدواج الشخصية الانسانية، وآثاره السيئة على الفرد والمجتمع، لكن علماء القانون الوضعي لايستطيعون القضاء على هذه الظاهرة الخطرة في المجتمع.

وبشأن الحرص والحسد والتكبر يقول الامام جعفربن محمد الصادق عليه السلام:

«أصول الكفر ثلاثة: الحرص، والاستكبار، والحسد، فاما الحرص فان آدم ــ عليه السلام ــ حين نُهِي عن الشجرة حمله الحرص على أن يأكل منها، وأما الاستكبار فابليس حيث أُمِرَ بالسجود لآدم فأبى، واما الحسد فابنا آدم حيث قتل أحدُهما صاحبَه». [2]

وحول الغضب يقول ــ عليه السلام ــ:

«الغضب مفتاح كل شر» [3]

وهذه الامراض النفسية تعصف اليوم بالمجتمعات البشرية وتهددها بالابادة والفناء، وتثير هنا وهناك الفتن والحروب الطاحنة والمجازر الدموية، كما انها تؤدي الى انتشار انواع الامراض النفسية والعقلية. وتنشر الدوائر العلمية والاجتماعية التحقيقات تلو التحقيقات عن هذه الانحرافات النفسية، ونتائجها، غير أن المسؤولين عاجزون عن استئصال جذور هذه الانحرافات والجرائم التي اخذت تزداد بازدياد بعد المجتمعات عن سلطة الدين وهيمنة الشريعة.

الفرق الثاني

الشريعة الاسلامية لا تضع العقوبات المترتبة على الجرائم المختلفة فحسب،

---

١ ــ نفس المصدر.

٢ ــ اصول الكافي (المترجم) ج ٣، ص ٣٩٦.

٣ ــ نفس المصدر، ص ٤١٢.

بل تسعى الى استئصال الجريمة من الفكر والروح، وتقضي على استفحال روح ارتكاب الجريمة من المحتوى الداخلي للانسان. بينما لا تستطيع القوانين الوضعية اكثر من تعيين العقوبات للمذنبين.

الاسلام يردع الانسان عن التفكير بارتكاب الذنب، كي لاينضج هذا التفكير في الذهن، ويتحول بعد ذلك الى واقع عملي.

يقول أمير المؤمنين علي ــ عليه السلام ــ :

«من كثر فكره في المعاصي دعته اليها». [1]

يتجه الاسلام ــ بشكل عام ــ الى تربية الانسان فكرا وروحا، وابعاده عن كل ما يعكر صفو نفسه و يخلق العقد في وجوده. لذلك فهو يدعو اولا وقبل كل شيء الى الايمان حيث به تتحقق القاعدة التربوية اللازمة للعمل الصالح، ولذلك نجد القرآن يذكر العمل الصالح دوما بعد الايمان:

«ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات...». (البقرة : ٢٧٧)

البحوث الاجتماعية تؤيد اليوم ضرورة قيام القوانين على قاعدة ايمانية ثابتة في نفوس افراد المجتمع، والاّ فلا يمكن ان تخلق في نفوس الافراد اندفاعا ذاتيا للالتزام بها، بل ان الالتزام بقوانين لا تقوم على قاعدة ايمانية، سوف يبقى دائما التزاما مؤقتاً مفروضا، لايقوى على البقاء أمام الاندفاعات الحيوانية في نفس الانسان.

الاسلام ركز على تربية ما يدور في نفس الانسان من خواطر ونوايا وأهداف، كي يخلق في النفس الانسانية الاخلاص اللازم للعمل المخلص. يقول سبحانه:

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين».

(القصص: ٨٣)

فالارادة ــ مجرد الارادة ــ للعلو والفساد محظورة في الاسلام.

والامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) يقول مشددا على أهمية النية الصادقة:

---

١ ــ غرر الحكم، ص ٦٦٤.

«لاعمل الآ بنية».[1]

وعن الامام جعفربن محمد الصادق (ع):

«ان الله يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة».[2]

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

«نية المرء خير من عمله، ونية الفاجر شر من عمله وكلٌّ عامل يعمل بنيته».[3]

وعنه ــ عليه افضل الصلاة والسلام ــ:

«انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى».[4]

ولماذا هذا الاهتمام من الاسلام بالنوايا؟، ولماذا يجعل الاسلام النية أهم من العمل نفسه؟ تجيب على ذلك رواية عن الامام جعفربن محمد الصادق (ع):

«عن زيد الشحام قال: قلت لابي عبدالله (ع): اني سمعتك تقول: نية المؤمن خير من عمله، فكيف تكون النية خيراً من العمل؟ قال: **لان العمل ربما يكون رياء للمخلوقين، والنية خالصة لرب العالمين، فيعطي الله عزوجل على النية ما لايعطي على العمل».**[5]

و بشأن النوايا الشريرة، روي عنه أيضا:

«انما خلد أهل النار في النار لان نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها ان يعصوا الله ابداً، وانما خلد اهل الجنة في الجنة لان نياتهم كانت في الدنيا ان لو بقوا فيها ان يطيعوا الله ابداً، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا: (قل كل يعمل على شاكلته)، قال: على نيته».[6]

روايات في أهمية النية

روي عن رسول الله(ص) أنه قال: **«اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل في النار،**

---

١ ــ الوسائل، ج ١، ص ٦٧.

٢ ــ محاسن البرقي، ص ٢٦٢.

٣ ــ نفس المصدر، ص ٢٦٠. وفي الوسائل ج ١ ص ٣٥ «نية المؤمن خيرمن عمله، ونية الكافر شر من عمله وكل عامل يعمل على نيته». (المصحح)

٤ ــ الوسائل، ج ١، ص ٣٨.

٥ و٦ ــ نفس المصدر السابق.

وكذا المقتول، لانه اراد قتل صاحبه».[1]

وعن الصادق ــ عليه السلام ــ :

«انّ المؤمن لينوي الذنب فيحرم الرزق».[2]

وفي رواية ان عيسى المسيح (ع) اوصى اتباعه قائلا:

«ان موسى أمركم ان لا تزنوا، وأنا آمركم ان لاتحدثوا انفسكم بالزنا فضلا عن ان تزنوا، فان من حدث نفسه بالزنا كمن اوقد في بيت مزوق فأفسد التزاويقَ الدخانُ وان لم يحترق البيت».[3]

وفي الروايات المنقولة بشأن المعاصرين لرسول الله (ص) نلاحظ بوضوح أهمية النية والقصد في تعيين منزلة الافراد، من ذلك:

١ ــ روى عاصم بن قتادة أن رجلا من أهل المدينة يسمى «قزمان» لم يكن معروف النسب، كان كلما ذكر اسمه عند رسول الله(ص) قال عنه: **انه لمن أهل النار.**

فلما كان يوم أُحد قاتل قتالا شديدا، حتى قتل بضعة نفر من المشركين. فكثرت جراحه، فحمل الى خارج ساحة المعركة، فقال له رجل من المسلمين:

أبشر ياقزمان، فقد أبليت اليوم، وقد أصابك ماترى في الله.

قال قزمان: بماذا أُبشر؟! فو الله ما قاتلت الا حمية عن قومي!!

فلما اشتدت به جراحاته وآذته أخذ سهما من كنانته فقطع شريان يده ومات منتحرا!![4]

٢ ــ في غزوة تبوك تحمل المسلمون ألوان العسر والمشقة بسبب شدة الحرّ وقلة المؤونة حتى هَمَّ قوم بالرجوع، ثم تداركهم لطف الله تعالى، قيل انه اذا بلغ

---

١ ــ جامع السعادات، النراقي، ج ٣ص ١١٣.

٢ ــ البحار (الطبعة الجديدة) ج ٧٣، ص ٣٥٨. هذه القاعدة التي يذكرها الحديث تختص بالمؤمنين، تنبيها لهم من الغفلة، ولا تشمل الكافرين الذين لانرى لنواياهم وأعمالهم الخبيثة ــ عادة ــ تأثيراً في وضعهم الاقتصادي، وعن الصادق(ع): «اذا اراد الله عزوجل بعبد خيرا فاذنب ذنبا تبعه بنقمة ليذكره الاستغفار، واذا اراد الله عزوجل بعبد شرا فأذنب ذنبا تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار و يتمادى به، وهو قول الله عزوجل (سنستدرجهم من حيث لايعلمون) بالنعم عند المعاصي»» (بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢٢٩).

٣ ــ البحار ــ ط جديد ــ ج ١٤، ص ٣٣١

٤ ــ سيرة ابن هشام، ص ١٧١ و ١٧٢.

الجوع من احدهم ــ في تلك الغزوة ــ اخذ التمرة فلاكها حتى يحس بطعمها، ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء، وهكذا حتى يأتي عليها آخرهم فلا يبقى منها الا النواة.[1]

في تلك الغزوة الشاقة قال رسول الله(ص) لأصحابه: «**ان بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطأنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة الا شاركونا في ذلك وهم في المدينة**».

قالوا: وكيف ذلك يارسول الله، وليسوا معنا؟!

فقال: «**حسبهم العذر، فشاركونا بحسن النية**».[2]

٣ ــ في الخبر ــ ان رجلا من المسلمين قتل في احدى الغزوات بايدي بعض الكفار وكان يُدعى بين المسلمين «قتيل الحمار»، لانه قاتل رجلا من الكافرين نية ان يأخذ حماره وسلبه، فقتل على ذلك فاضيف الى نيته.[3]

٤ ــ بعد استشهاد الحسين بن علي (عليهما السلام) في كربلاء، ووصول خبر شهادته الى المدينة، هَمَّ الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الانصاري بزيارة قبر الحسين، ووصل الى كربلاء بعد اربعين يوما من مقتل سيد الشهداء، وهو آنذاك شيخ ضرير، ووصل الى القبر ومعه عطية بن سعد بن جنادة الكوفي، وهو من العلماء والمفسرين.[4] فوقع جابر على القبر، واغمي عليه، ثم أفاق، فندب الحسين ورثاه ثم قال:

«السلام عليكم ايتها الارواح التي حلت بفناء الحسين واناخت برحله، وأشهد انكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين، والذي بعث محمدا بالحق نبيا لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه».

فسأله عطية متعجبا: وكيف نكون قد شاركناهم ولم نساهم معهم في قتال؟ قال جابر:

---

١ ــ راجع بشأن غزوة تبوك : (مجمع البيان) للشيخ الطبرسي، ج ٥ ص ٧٩، تفسير الآية ١١٨ من سورة التوبة.

٢ ــ جامع السعادات، النراقي، ج ٣، ص ١١٣.

٣ ــ جامع السعادات، ج ٣، ص ١١٣.

٤ ــ عرفه بعضهم خطأ انه غلام جابر.

«يا عطية سمعت حبيبي رسول الله(ص) يقول: من أحب قوما حشرمعهم، ومن أحب عمل قوم اشرك في عملهم، والذي بعث محمدا بالحق نبيا ان نيتي ونية اصحابي على ما مضى عليه الحسين(ع) واصحابه».[1]

* * *

نية السوء والذنب

اعتبر الاسلام النية السيئة ذنبا، حتى ولولم تخرج الى حيز العمل، لذلك كان الراضي بالوضع الاجتماعي السيِّئ ، مسيئا أيضا، وان لم يشارك عمليا.

روي عن علي ــ عليه السلام ــ قال:

«انما يجمع الناس الرضا والسخط فمن رضي أمرا فقد دخل فيه، ومن سخطه فقد خرج منه».[2]

وقال أيضا:

«الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل اثمان: اثم العمل به، واثم الرضا به».[3]

و يردّد اتباع مدرسة آل البيت(ع) في زيارتهم مرقد أبي عبد الله الحسين(ع):

«.. فلعن الله أمة قتلتك ، ولعن الله أمة ظلمتك، ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به».

من هنا فان حب اشاعة الفاحشة بين المؤمنين، هذا الحب فقط ذنب كبير، وعد الله فاعله بالعذاب الاليم في الدنيا والآخرة، قال سبحانه:

«ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة». (النور: ١٩)

وقفة عند «قصد السيئة»

ذكرنا ان الاسلام في عمليته التربوية ــ يتغلغل الى أعماق النفس

---

١ ــ بشارة المصطفى، ص ٨٩.

٢ ــ محاسن البرقي، ص ٢٦٢.

٣ ــ نهج البلاغة، ص ١١٥٤.

الانسانية فيستأصل منها جذور الانحراف، ولذلك يحظر حتي الاتجاه نحو الذنب في النية، و يعتبر النية السيئة، وقصد السيئة، ذنبا حتى ولو لم يخرج الى نطاق العمل.

وهنا يثار اعتراض بهذا الشأن، فثمة روايات تعتبر الذنب ما قام به صاحبه عملياً، لامانواه وهمّ بفعله، كقول الامام ــ عليه السلام ــ:

«ان الله تبارك وتعالى جعل لآدم في ذريته من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بحسنة وعملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ومن همّ بها وعملها كتبت عليه سيئة».[1]

هذه المسألة درسها كبار العلماء من امثال المرتضى والشيخ البهائي والمحقق الطوسي، واجابوا عنها، و يظهر من مجموع النصوص الاسلامية بهذا الشأن أن العزم على الذنب والرضا به ذنب أيضا من الناحية الخلقية التي نحن بصددها، أما من الناحية الفقهية فللفقهاء آراء متعددة هي باختصار:

١ ــ النية الجادّة التي يتبعها عزم على ارتكاب الذنب ثم فعله هي النية المحرمة، اما التي تخطر في الذهن من غير ارادة أحيانا فليست من الذنوب. اختار ذلك العلامة الحلي في شرح التجريد.

٢ ــ لاشك في أن مثل هذه النية، ذنب، ولكن يستفاد من هذه الرواية أن هذا الذنب مغتفر. ذهب الى ذلك الشيخ البهائي.

٣ ــ ان قصد الذنب ذنب، الا انه لا عقوبة عليه.

٤ ــ المقصود بالحديث أن يهمّ الانسان بذنب ولكنه يتراجع عن نيته و يندم على ماعقد العزم عليه، اختار هذا الشيخ الانصاري في «الفرائد».

الفرق الثالث

القوانين الوضعية تحدّد للجرائم المختلفة عقوبات معينة محدودة كالسجن أو الغرامة وامثالها، بينما الاسلام يجعل عاقبة الجريمة خسران الدنيا والآخرة، ان لم تتبعها توبة صادقة، أي ان لم يكف المجرم عن سيئاته كفا تاما.

الاسلام يرى ان اعمال البشر مترابطة مع بعضها كل الارتباط، فالسيئة تؤثر على سلوك الانسان، واستمرار السيئات يؤدي الى انغماس الفرد في مستنقع

---

١ ــ اصول الكافي (المترجم)، ج ٤، ص ١٦١.

الرذيلة، حتى يصل الى درجة لايستطيع معها أن يتخلص مما احيط به من جو فاسد. كما ان الفساد له مردود اجتماعي أيضا. وهكذا ينظر الاسلام الى الجريمة باعتبارها عملا ذا تأثيرات بعيدة على حياة الفرد الدنيوية والأخروية وعلى حياة الجماعة أيضا.

يقول سبحانه وتعالى:

«ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس»

(الروم، ٤١)

و يقول أيضا:

«وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم»

(الشورى: ٣٠)

و يقول:

«بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون».

(البقرة: ٨١)

وتجمع النصوص الاسلامية بين عقاب الدنيا والآخرة، ففي القرآن الكريم يقول سبحانه:

«فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أويصيبهم عذاب اليم».

(النور: ٦٣)

و يقول تعالى:

«لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم».

(المائدة: ٣٣)

وفي الحديث أيضا نرى مثل هذا الجمع بين الدنيا والآخرة، وسنعرض ذلك في فصول قادمة، ونكتفي هنا بنقل حديثين، الاول عن الزنا والآخر عن الكذب.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«يا معشر المسلمين اياكم والزنا، فان فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة. فأما التي في الدنيا فانه يذهب بالبهاء ويورث الفقر وينقص العمر، واما التي

في الآخرة فانه يوجب سخط الربّ وسوء الحساب والخلود في النار»[1]

وعن أميرالمؤمنين علي ــ عليه السلام ــ :

«ثمرة الكذب المهانة في الدنيا والعذاب في الآخرة»[2]

هذا الربط بين عمل الانسان و بين حياته الدنيوية والأخروية ــ اضافة الى انه يكشف حقيقة من الحقائق العملية والايمانية ــ فانه يشكل عنصر الضمان لتطبيق الشريعة ولصيانة الانسان على الطريق السوي المستقيم، ويشكل الدعامة التي تحفظ الفرد من الانزلاق والانجراف أمام تيارات الفساد وعواصف الشهوات.[3] كما ان هذا الارتباط يقوّي عنصر الرقابة غير المنظورة على الفرد، فيحس الانسان بكرامته ومسؤوليته حتى في لحظات خلوته.

على سبيل المثال، ان ما يشجع السارق على سرقته عاملان:

الاول ــ عدم احساسه بالرقابة غير المنظورة في حياته، أي شعوره بامكان الفرار من وجه العدالة والحصول على الغنيمة الباردة دون عقاب.

الثاني ــ استهانته بالعقاب، ان امتدت اليه يد القانون، فلا أهمية في نظره للفترة المحدودة التي سيقضيها في السجن، يأكل خلالها وينام ولاينغص حياته شيء..

وفي الاطار الاسلامي لايستطيع فرد أن يفكر كذلك ، فالاسلام يربي عند الأفراد الشعور بالرقابة الالٓهية التي تتابع كل حركات الانسان وسكناته. كما انه يجعل العقاب شديدا في الدنيا (قطع اليد أمام الملأ من الناس)، وعذاب الآخرة أشد وأنكى.

---

١ ــ الخصال، للصدوق، ج ١، ص ٣٢٠. ومن الواضح ان النصوص الاسلامية اكدت أيضا على مردود العمل الصالح على حياة الفرد في الدنيا وفي الآخرة، كقوله تعالى: «فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة» (آل عمران: ١٤٨).

وقوله:

«فعند الله ثواب الدنيا والآخرة» (النساء: ١٣٤).

وقوله سبحانه:

«الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة...» (يونس: ٦٣).

٢ ــ غرر الحكم، ص ٣٦١.

٣ ــ جاء في الحديث: «المؤمن كالجبل الراسخ لاتحركه العواصف».

مما تقدم نفهم دور الايمان بالآخرة و بيوم الحساب في صدّ الانسان عن ارتكاب الذنب. واليك بعض القصص في هذا المجال:[1]

١ ــ روى ابن الجوزي في (المدهش) عن أحد الصلحاء أنه رأى في مصر حداداً يضع الحديدة في الكورة، ثم يخرج الحديدة الحارّة المحمرّة بيده دون أن تحترق. قال: أدهشني المنظر، فما تمالكت نفسي الا أن سألته عن سر هذه الظاهرة، والححت عليه في السؤال، فقال: ياهذا ان لذلك قصة، وحدثني بقصته فقال:

جاءت امرأة في غاية الجمال الى دكاني يوما، وطلبت مني مالاً أنفقه عليها في سبيل الله.

قلت لها ــ وقد حيرني جمالها ــ سأعطيك ما أردت اذا جئت معي الى البيت وقضيت منك وطري.

ارتعدت فرائص المرأة حين سمعت قولي وقالت: والله لست أنا ممن يفعل ذلك، ثم صرفت وجهها وذهبت.

بعد هنيهة عادت وقالت: دفعتني الحاجة لأن أعود اليك، فنهضت من مكاني وأقفلت الدكان واخذتها الى البيت.

وفي البيت قالت لي: ياهذا ان لي اطفالا صغارا يتضورون جوعا في البيت و ينتظرون قدومي بفارغ الصبر، فلو أعطيتني شيئا أذهب به اليهم ثم أعود اليك ، بعد أن أخذت منها المواثيق، أعطيتها بعض الدارهم، فذهبت وعادت بعد ساعة، فنهضت وأغلقت باب الدار و وضعت عليه قفلا.

قالت: لم تفعل ذلك .

قلت: خوفا من الناس.

قالت: الا تخاف الله.

قلت: الله غفور رحيم.

وما ان ذكرت اسم الله أمامها حتى وجدتها ترتجف كغصن شجرة ندي أمام الرياح العاتية، سألتها عن السبب، قالت: أخاف من الله، ثم قالت: يارجل أطلق سراحي في سبيل الله وأضمن لك النجاة من حرّ النار في الدنيا والآخرة.

وما ان شاهدت وضعها وسمعت كلامها حتى تغيّر حالي وأخذت

---

١ ــ نقلنا هذه القصص بتلخيص و بتصرف في عبارات الاصل.

ماعندي من مال فأعطيتها اياه وقلت لها: اذهبي في سبيل الله.

كنت بعد ذهاب المرأة في حالة خاصة لايمكن وصفها. جلست أتأمل فيما مرّبي من حوادث سريعة فاستولى عليّ النوم، فرأيت فيما يرى النائم ان امرأة موقرة جاءت اليّ وعلى رأسها تاج من ياقوت وقالت:

يا هذا جزاك الله عنا خيرا.

قلت: ومن أنت؟

قالت: انا تلك المرأة التي أطلقت سراحها في سبيل الله... لا أحرقك الله بالنار، لافي الدنيا ولا في الآخرة.

سألتها عن نسبها، قالت: أنا من ذرية رسول الله(ص).

استيقظت من النوم، فشكرت الله على ما أنعم عليّ من قدرة على ضبط النفس ورحت أردّد قوله تعالى:

«انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً».

ولم تحرقني النار بعدها أبدا. وارجو الله أن يقيني نار الآخرة.[1]

قاطع الطريق

عن علي بن الحسين (ع): «ان رجلا ركب البحر بأهله، فكسر بهم، فلم ينج ممن كان في السفينة الآ امرأة الرجل، فانها نجت على لوح من ألواح السفينة حتى ألجئت الى جزيرة من جزائر البحر.

وكان في تلك الجزيرة رجل يقطع الطريق، ولم يدع لله حرمة الا انتهكها، فلم يعلم الا والمرأة قائمة على رأسه، فرفع رأسه اليها فقال: انسية ام جنية؟ فقالت: انسية فلم يكلمها كلمة حتى جلس منها مجلس الرجل من أهله. فلما أن همّ بها اضطربت، فقال لها مالك تضطربين؟ أفرق (أخاف) من هذا، وأومأت بيدها الى السماء. قال: فصنعتِ من هذا شيئا؟ (هل سبق لك أن زنيت؟) قالت: لاوعزّته. قال: فأنت تفرقين منه هذا الفرق ولم تصنعي من هذا شيئا وانما استكرهكِ استكراها، فانا والله أولى بهذا الفَرَق والخوف وأحق منك.

فقام ولم يحدث شيئا، ورجع الى أهله وليس له هم الاّ التوبة والمراجعة،

---

١ ــ فضائل السادات، ص ٢٤٠ ــ ٢٤١.

فبينا هو يمشي اذ صادفه راهب يمشي في الطريق فحميت عليهما الشمس، فقال الراهب للشاب: أدع الله يظلنا بغمامة، فقد حميت علينا الشمس، فقال الشاب: ما أعلم أنَّ لي عند ربي حسنة فأتجاسر على أن أسأله شيئا. قال: فأدعو أنا وتؤمّن أنت؟ قال: نعم. فأقبل الراهب يدعو والشاب يؤمّن، فما كان بأسرع من أن أظلتهما غمامة، فمشيا تحتها مليّا من النهار، ثم تفرقت الجادة جادتين. فأخذ الشاب في واحدة وأخذ الراهب في واحدة، فاذا السحابة مع الشاب!

فقال الراهب: أنت خير مني، لك استجيب ولم يستجب لي، فأخبرني ما قصتك؟ فأخبره بخبر المرأة، فقال: غفر لك ما مضى حيث دخلك الخوف، فانظر كيف تكون فيما تستقبل». [1]

خلاصة القسم الاول:

١ ــ الذنب مخالفة القانون والتمرد عليه.

٢ ــ الشريعة الاسلامية لا تعالج الذنوب التي تسيء الى المجتمع بشكل مباشر فحسب ــ كما هو شأن القوانين الوضعية ــ بل تعالج الذنوب الناتجة عن انحرافات النفس الانسانية، والتي تؤدي بالتالي الى تحطيم كرامة الانسان وانهدام المجتمع الانساني.

٣ ــ الاسلام يستأصل جذور الجريمة من الفكر والنوايا والعزائم.

٤ ــ ثمة افراد شاركوا في أقدس المعارك الاسلامية، لكنهم لم ينالوا ــ بسبب نيتهم ــ درجة الشهادة. بينما نرى آخرين شاركوا المجاهدين ثوابهم وهم لم يشتركوا ــ لعذر ــ في المعركة، بسبب نيتهم أيضا.

٥ ــ النصوص الاسلامية اعتبرت الراضين بافعال الظالمين أو بافعال الصالحين مشاركين لهم في أفعالهم.

٦ ــ الاسلام سعى لتقوية روح الايمان بالآخرة في النفوس، وهذا الايمان يشكل عنصر الردع عن ارتكاب الذنب، و يقوي عنصر الرقابة الغيبية على أعمال الأفراد.

---

١ ــ اصول الكافي (المترجم)، ج ٣، ص ١١١، ١١٣.

القســم الثاني

الذنب
نوع من الامراض

ذنب أم مرض؟!

كنت أعدّ هذا القسم للطبع اذ طلع علينا كاتب في علم النفس يقول:

«اضحى من المؤكد علميا وفلسفيا اليوم عدم وجود انسان طالح، بل الموجود هو الانسان المريض».

«لانبالغ لو قلنا ان البشرية لم تكتشف في تاريخها حقيقة ذات تأثير على سعادتها كهذه الحقيقة».

«ذلك لان العيوب البشرية مثل الحسد والخوف واليأس والرياء والخجل والخداع ستكون أمراضا شبيهة بالحمى والزكام، قابلة للعلاج أوّلاً، ولايستحق صاحبها اللوم ـــ ثانيا ـــ بل الشفقة». [1]

ولقد سمعت من قبل طبيبا جاء من اوروبا ليقول: «ان العلم الحديث اكتشف ان الذنوب ما هي الاّ امراض نفسية قابلة للعلاج».

حقا ان هذه الحقيقة مهمة للغاية، وذات تأثير كبير على سعادة البشرية.. حقيقة ان الآثام أمراض نفسية قابلة للعلاج، لكن هذه الحقيقة ليست من

---

١ ـــ بتلخيص عن كتاب «روانكاوي» (ف)، خواجة نوري، ص ٧ ـــ ٨.

مكتشفات العلم الحديث، بل ان الاسلام ركز عليها قبل أربعة عشر قرنا.

القرآن الكريم يقول عن المنافقين المخادعين:

«في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا»

(البقرة: ١٨)

كما يصف ذوي النفوس الضعيفة المنساقة وراء شهواتها بأنهم مرضى:

«فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض»

(الاحزاب: ٣٣)

وهكذا يعتبر المذبذبين والمردّدين مرضى:

«واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً»

(الاحزاب: ١١)

وهكذا النصوص الدينية تصرّح بأن الذنوب والآثام أمراض في القلوب والنفوس.

يقول علي (ع):

«لا وجع أوجع للقلوب من الذنب».[١]

و يقول:

«الذنوب الداء، والدواء الاستغفار، والشفاء أن لا تعود».[٢]

وحول الحسد يقول:

«الحسدداء عياء لايزول الاّ بِهُلكِ الحاسد أوموت المحسود».[٣]

و بشأن الحقد يقول:

«الحقد داء دويٌّ ومرض موبي»[٤].

وعن التكبر يقول:

«الكبر داع الى التقحُّم في الذنوب»[٥].

وفي موضع آخر يصف الشهوات بأنها أمراض قاتلة:

---

١ ــ بحار الانوار، ط جديدة، ج ٧٣ ص ٣٤٢.

٢و٣ ــ غرر الحكم، ص ٧٩.

٤و٥ ــ غرر الحكم ص ٥٦ ــ ٥٩.

علاج المرض

الكاتب المذكور يطرح آخر ابتكارات علم النفس في معالجة هذه الامراض النفسية المتجلية بشكل ذنوب وآثام في الموجود البشري.

وملخص ذلك أن الطبيب النفساني يطرح على المريض اسئلة مبوبة منظمة تنظيما خاصا بحيث تجر المريض الى تسلسل الافكار، والى الرجوع الى أعماق نفسه، واستكشاف «العفاريت» التي تعبث به وتسيطر على ارادته، ثم تسليط الضوء على هذه العفاريت التي لا تقوى على العيش الا في الظلمات، و بعد ذلك تخليص هذا المريض من هذه القوى الشريرة.[2]

هذه الطريقة في العلاج لها ــ كما يذكر علماء النفس انفسهم ــ نقائص عظيمة، وتكاد تكون غير مجدية بالمرة في بعض المواضع.

واهم نقائصها:

اولا ــ ليس بمقدور جميع افراد المجتمع أن يراجعوا الاطباء النفسانيين، و يقضوا في عيادات الاطباء الساعات الطوال في مختبرات العلاج النفسي، فذلك يتطلب توفر امكانيات علمية واسعة أوّلاً، ثم يتطلب نفقات باهظة لايمكن لعامة الناس أن يدفعوها، كما ان أغلب المرضى النفسانيين لايحسون بحاجة الى علاج لاسباب عديدة.

ثانيا ــ من المشاهد كثيرا أن الاطباء النفسانيين لايستطيعون التوغل الى أعماق النفس المريضة ولا حل العقد النفسية للمريض. و يذكر الاطباء في مذكراتهم ومشاهداتهم العلمية أمثلة كثيرة لذلك .

يذكرون على سبيل المثال أن فتاة أورو بية ولدت في عائلة مشهورة تعتقد بشؤم العدد (١٣)، وكانت ولادتها يوم الثالث عشر من الشهر. وحينما كبرت الفتاة وعلمت بالحقيقة ساورها قلق شديد بشأن مستقبل حياتها. أخذتها العائلة الى طبيب نفساني ليعالجها، فبذل الطبيب كل طاقاته العلمية لكنه لم يفلح في

١ــ غرر الحكم ص ٧٢.

٢ ــ روانكاوي (ف)، ص ١١٩ ــ ١٢٢.

العلاج.

مضت الايام وتزوجت الفتاة وانجبت، وفي ذات يوم كانت مع زوجها واطفالها في نزهة، فرآها طبيبها النفساني، فجاء اليها وقال لها: ألم أقل لك إن وساوسك لاقيمة لها؟! هاأنت تعيشين سعيدة مع زوجك واطفالك . فانفجرت المرأة باكية وقالت: ان العدد ١٣ سوف يؤثر على حياتي في المستقبل، ويجعلني شقية بائسة.

ثالثا ــ ان هذا اللون من الامراض يصيب الاطباء انفسهم، و:

الى المـاء يسعى من يغص بلقمة
الى أين يسعى من يغص بماء

ومن المشاهد ان المعلومات العلمية ليست قادرة على أن تصعد من ارادة الانسان ولا أن تعالج نقاط ضعفه النفسية.

فهذا ابوعلي بن سينا ــ وهو قمة علمية شامخة ــ ينهى عن الافراط في مقاربة النساء، وروي عنه قوله:

اقلل جماعك ما استطعت فانه
ماء الحياة تصب في الارحام
واجعل غذاءك كل يوم مرة
واحذر طعاما قبل هضم طعام

بينما يذكر المؤرخون انه توفي في العقد السادس من عمره لافراطه في الجماع!!

وقيل فيه:

فلم يشف ما نابه بالشفاء
ولم ينج من موته بالنجاة[1]

وذكر استاذ انه حضر مؤتمرا طبيا حول اضرار المشروبات الكحولية، القى فيه احد الاطباء بحثا وافيا عن هذا الموضوع، وشرح الاضرار الجسيمة الفظيعة للخمور، فأثر في الحاضرين جميعا، يقول الاستاذ: أردت أن أقترب من الطبيب

---

١ ــ «الشفاء» و «النجاة» كتابان مهمان من كتب ابن سينا.

لاشكره على محاضرته القيمة في ذلك المؤتمر، فلم يتيسر لي ذلك ، وفي أحد الأيام رأيته في أحد شوارع طهران،[1] فسارعت اليه لأشد على يده وأشكره، فما ان اقتربت منه حتى شممت من فمه رائحة حادّة تنبئ عن اسرافه في تناول الخمرة.

وامثال ذلك كثير.

رابعا ــ هناك من العقد النفسية ما لايمكن للمعالجات الطبية أن تحلها، خاصة اذا كانت ناشئة عن ذنب لايمكن ازالة آثاره، كالقتل وهتك العرض.

فالانسان الذي تلوثت يده بقتل شخص، اما أن يستهين بالعمل و يصبح قاتلا محترفا خطرا، أو يحس بالذنب فيتحول الى انسان معقد يحس بشبح المقتول يلاحقه أينما ذهب، وقد يؤدي به الأمر الى الجنون.

العلاج الاسلامي

١ ــ الاسلام ــ كما ذكرنا في القسم الاول ــ يعالج الحالة المرضية قبل وقوعها، فيبعد الانسان عن مواطن الجريمة ويحميه من الاصابة بهذه الامراض النفسية، ويمنعه حتى من التفكير بالذنب.

كما يمنعه من مجالسة الملوثين كي لا تصيبه العدوى. وسنفصل القول في ذلك في موقف الانسان المسلم من الملوثين بالآثام.

٢ ــ يركز الاسلام على تثبيت القاعدة الايمانية في النفوس، كي تكون أساساً للاطمئنان والاستقرار، وهذا الايمان بمقدوره ان يقضي على كل قلق واضطراب، يقول سبحانه:

«الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، الا بذكر الله تطمئن القلوب»

(الرعد: ٢٨)

٣ ــ الاسلام يوجه الافراد الى نوع من مراجعة الذات كالتي يتبعها الاطباء النفسانيون في معالجة مرضاهم.

ولعل حث الاسلام على التفكير ينطلق من هذا التوجيه. فقد ورد في الحديث:

---

١ ــ الكاتب يتحدث عن طهران أيام أريد لها أن تكون مركزاً للمفاسد والموبقات، اما طهران الاسلام ــ اليوم ــ فلا اثرفيها ــ والحمد لله ــ لهذه الانحرافات.

«من عرف نفسه فقد عرف ربه».

و «تفكر ساعة خير من عبادة سنة ــ أو سبعين سنة».

٤ ــ يفتح الاسلام باب التوبة والاستغفار على مصراعيه امام الانسان المذنب مهما عظم ذنبه، كي لايتحول الذنب الى عقدة تحول الفرد الى مريض نفسيا.

يقول سبحانه:

«والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب الآ الله، ولم يصروا على ما فعلوا..».

(آل عمران: ١٣٥)

ومر بنا عن أمير المؤمنين علي ــ ع ــ قوله:

«الذنوب الداء، والدواء الاستغفار، والشفاء أن لا تعود».

وعن أبي جعفر الباقر(ع):

«اذا زنى الزاني خرج منه روح الايمان وان استغفر عاد اليه».[١]

ولقد عمق الاسلام روح الرجاء في الانسان حتى قال له على لسان علي(ع):

«وارج الله رجاء أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ».[٢]

و بعبارة مليئة بالرحمة واللطف والعطف يخاطب الله عباده:

«قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً»

(الزمر: ٥٣)

وروي أن محمد بن شهاب الزهري (من كبار محدثي أهل السنة وممن نقل أحاديث عن الامامين السجاد وابنه الباقر ــ عليهما السلام ــ) قتل شخصا بريئا، فندم واضطربت حاله وتصاعد القلق في نفسه، فهام على وجهه ولجأ الى غار فسكن فيه، واعتزل الناس، واطلق شعر رأسه و وجهه، سمع الامام السجاد بخبر الزهري فجاء اليه وقال له:

«اني أخاف عليك من قنوطك مالا أخاف عليك من ذنبك ، فابعث بدية

---

١ ــ الوسائل، ج ٣ ص ٩٣، باب تحريم الزنا.

٢ ــ مجموعة ورام، ج ١، ص ٥٠.

مسلمة الى أهله، واخرج الى أهلك ومعالم دينك».

فنزلت على قلبه هذه الكلمات منزلة الديمة السمحاء على الأرض الجدبة، وعاد الزهري الى وعيه وانشرحت نفسه وراح يردد: «فرجت عني ياسيدي والله أعلم حيث يجعل رسالته».[1]

٥ ــ يعالج الاسلام الامراض النفسية عن طريق التذكير المستمر بأخطار هذه الامراض، وعن طريق استثمار الروح الايمانية في الأفراد، مؤطرا بذلك مكافحته للامراض النفسية باطار ايماني. فبشأن الحسد:

روي عن رسول الله (ص):

«أقل الناس لذة الحسود».[2]

وعن أميرالمؤمنين علي (ع):

«الحسد يذيب الجسد».[3]

وعن الصادق (ع):

«ان الحسد يأكل الايمان كما تأكل النار الحطب».[4]

وسنتعرض بتفصيل اكثر في فصول قادمة لسبل معالجة الاسلام للامراض النفسية.

موقف الاسلام من المذنبين

الاسلام يتجه الى معالجة المذنبين، و يضع كل التعاليم اللازمة لهذه المعالجة ومنع سراية هذا المرض الى الآخرين. ومن أجل توفير الجو الاجتماعي اللازم للمعالجة يحذر الاسلام تحذيرا شديدا من تعيير المذنب ومن توبيخه.

عن علي بن الحسين (ع) قال:

«كان آخر ما أوصى به الخضر موسى بن عمران (ع) أن قال له: «لا تعيرنَّ أحداً بذنب».[5]

---

١ ــ كشف الغمة، الاربلي، ج ٢، ص ٣١٧.

٢ ــ معاني الاخبار، ص ١٩٥.

٣ ــ غرر الحكم، ص ٣٢ ــ ٣٣.

٤ ــ نفس المصدر السابق.

٥ ــ البحار، ج ٧٣، ص ٣٨٦.

وعن الامام الصادق (ع):

«اذا وقع بينك وبين أخيك هنة فلا تعيره بذنب» [1]

وروي عن رسول الله (ص) قال:

«اذا زنت خادم أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يعيرها». [2]

وحذر الاسلام من ردود الفعل الناتجة عن التوبيخ والتعيير. قال علي (ع):

«الافراط في الملامة يشبُّ نيران اللجاج» [3]

وعنه أيضا:

«اياك أن تكرر العتب فان ذلك يغري بالذنب ويهوّن بالعتب». [4]

تحذيــر

ان عدم توبيخ المذنبين وتعييرهم لايعني زوال سدود المناعة بين المذنب وافراد المجتمع. فلابد من ايجاد الموانع التي تحول دون انتشار العدوى. والاسلام شدّد لذلك على خلق حواجز نفسية في وجود الانسان المسلم كي لا تصيبه عدوى الأمراض النفسية والتلوث الخلقي من الآخرين.

قال أميرالمؤمنين علي (ع):

«لاينبغي للمرء المسلم أن يؤاخي الفاجر، فانه يزين له فعله ويحب ان يكون مثله، ولايعينه على أمر دنياه ولا أمر معاده، ومدخله ومخرجه من عنده شين عليه». [5]

«.. واياك ومصاحبة الفاسق فانه بايعُك بأكلة وأقلَّ من ذلك ». [6]

وعن علي (ع) قال:

«لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق من طبعه شرا وانت لا تعلم». [7]

---

١ ــ المستدرك ، ج ٢ ص ١٠٥.
٢ ــ مجموعة ورام، ج ١ ص ٥٧.
٣ ــ تحف العقول، ص ٨.
٤ ــ غرر الحكم، ص ٢٧٨.
٥ ــ وسائل الشيعة، ج ٢ ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠.
٦ ــ الكافي (المترجم)، ج ٤ ص ٨٦.
٧ ــ شرح ابن ابي الحديد، ج ٢، ص ٥٣٨.

وعن الامام محمدبن علي الجواد (ع):

«اياك ومصاحبة الشرير فانه كالسيف المسلول يحسن منظره ويقبح أثره». [1]

ومن أجل خلق المناعة النفسية في ذات الانسان المسلم من التلوث بامراض المذنبين، تخلق في المؤمنين حالة نفسية تشمئز من الذنب ومرتكبه.

عن الامام الصادق، عن جده أميرالمؤمنين (ع) قال:

«أمرنا رسول الله(ص) أن نلق أهل المعاصي بوجوه مكفهرة». [2]

وعن الصادق (ع) أيضا:

«أدنى الانكار أن يلق أهل المعاصي بوجوه مكفهرة». [3]

وروي أن عيسى (ع) قال:

«تحببوا الى الله ببغض اهل المعاصي، وتقربوا الى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضا الله بسخطهم». [4]

وعن رسول الله(ص):

«المرء على دين خليله وقرينه». [5]

وعن علي (ع):

«اياك ومصاحبة الفساق فان الشر بالشر ملحق». [6]

* * *

اليك هذه الوقائع

روى الجعفري قال: قال لي ابو الحسن عليه السلام: **«مالي رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب؟».**

قال الجعفري: انه خالي.

قال الامام: **«انه يقول في الله قولا عظيما، يصف الله ولا يوصف. فاما**

---

١ ــ البحار، ج ٧٤، ص ١٩٨.

٢ ــ الكافي، ج ٥، ص ٥٨ ــ ٥٩.

٣ ــ التهذيب، ج ٦، ص ١٧٦.

٤ ــ جامع السعادات، ج ٣، ص ١٨٧.

٥ ــ الكافي (المترجم)، ج ٤، ص ٨٣.

٦ ــ نهج البلاغة (المترجم)، ص ١٠٦١.

جلست معه وتركتنا، واما جلست معنا وتركته!»

الجعفري: هو يقول ما يشاء، أي شيء عليّ منه اذا لم أقل ما يقول؟!

الامام: **«أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعا؟ أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى (ع)، وكان أبوه من أصحاب فرعون، فلما لحقت خيل فرعون موسى تخلف عنه ليعظ أباه، فيلحقه بموسى. فمضى أبوه وهو يراغمه (أي يحاول اقناعه)، حتى بلغا طرفا من البحر فغرقا جميعا، فأتى موسى(ع) الخبر. فقال: هو في رحمة الله، ولكن النقمة اذا نزلت لم يكن لها عمّن قارب المذنب دفاع».** [1]

مقاطعة المتخلفين عن الجهاد

في السنة التاسعة للهجرة بلغ نبأ انعقاد معاهدة بين قبائل شمال الجزيرة العربية وامبراطور الروم للهجوم على المدينة، فجهز رسول الله(ص) جيشا واتجه الى تبوك ، فتخلف عن تلك الحملة مجموعة من المنافقين واناس آخرون لاسباب مختلفة، وكان ممن تخلف كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله(ص) ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق ولكن عن توان وتساهل، ثم ندموا.

ولما قدم النبي (ص) الى المدينة عائداً من الغزوة جاؤوا اليه واعتذروا فلم يكلمهم النبي(ص)، وأمر المسلمين أن لايكلمهم أحدمنهم. فهجرهم الناس حتى الصبيان، وجاءت نساؤهم الى رسول الله(ص) فقلن له: يا رسول الله نعتزلهم؟ فقال لا، ولكن لايقربوكن. فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا الى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ولايكلمونهم.

قال بعضهم لبعض قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم، فهلاّ نتهاجر نحن أيضا؟! فتفرقوا، ولم يجتمع منهم اثنان، و بقوا على ذلك خمسين يوما يتضرعون الى الله تعالى ويتوبون اليه، فقبل الله تعالى توبتهم ونزلت الآية فيها اشارة الى قبول توبتهم «**... وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض...**»[2] الى آخر

---

١ ــ اصول الكافي (المترجم)، ج ٤ ص ٨٢.

٢ ــ سورة التوبة، الآية: ١١٨.

الآية.[1]

أخاف أن أحترق بنارك !

روى عبد الرحمن بن غنم الدوس قال: دخل معاذ بن جبل على رسول الله(ص) باكيا، فسلم عليه فرد (ص) ثم قال: **ما يبكيك يا معاذ؟!** فقال: يا رسول الله ان بالباب شابا طريّ الجسد نقي اللون حسن الصورة يبكي كبكاء الثكلى، يريد الدخول عليك ، فقال النبي(ص) **أدخل عليّ الشاب يا معاذ** ، فأدخله عليه، فسلم على الرسول، ورد رسول الله ثم قال: **«مايبكيك ياشاب؟»** قال الشاب: كيف لاأبكي وقد ارتكبت ذنوباً لو أخذني الله عزوجل ببعضها أدخلني نار جهنم، ولا أراني الاسيأخذني بها ولا يغفر لي أبدا.

قال رسول الله (ص): **هل اشركت بالله شيئا؟**

الشاب: أعوذ بالله ان أشرك بربي شيئا.

النبي: **أقتلت النفس التي حرّم الله؟**

الشاب: لا.

النبي: **يغفر الله لك ذنوبك وان كانت مثل الجبال الرواسي.**

الشاب: فانها أعظم من الجبال الرواسي.

النبي: **يغفر الله لك ذنوبك وان كانت مثل الأرضين السبع وبحارها ورمالها واشجارها وما فيها من الخلق.**

الشاب: فانها أعظم من ذلك .

النبي: **يغفر الله لك ذنوبك وان كانت مثل السماوات ونجومها ومثل العرش والكرسي.**

الشاب: فانها أعظم من ذلك .

قال الراوي: فظهر النبي(ص) كهيئة الغضبان ثم قال **ويحك يا شاب ذنوبك أعظم أم ربك ؟!**

فخر الشاب لوجهه وهو يقول: سبحان الله ربي، ما شيء أعظم من ربي، فقال النبي (ص): **ويحك يا شاب الا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك .**

---

١ ــ تفسير مجمع البيان، ج ٥ ص ٧٩.

الشاب: بلى أخبرك ، اني كنت أنبش القبور سبع سنين أخرج الاموات وأنزع الاكفان فماتت جارية من بعض بنات الانصار، فلما حملت الى قبرها ودفنت وانصرف عنها أهلها، وجن عليها الليل، أتيت قبرها، فنبشته، ثم استخرجتها، ونزعت ما كان عليها من اكفانها، وتركتها متجردة على شفير قبرها ومضيت منصرفا، فاتاني الشيطان، فأقبل يزينها لي، (ولم يزل يوسوس) حتى رجعت اليها، ولم أملك نفسي حتى جامعتها وتركتها مكانها. فاذا انا بصوت من ورائي يقول: ياشاب و يل لك من ديان يوم الدين، يوم يقفني واياك كما تركتني عارية في عساكر الموتى، ونزعتني من حفرتي، وسلبتني اكفاني وتركتني أقوم جنبة الى حسابي، فو يل لشبابك من النار... ثم قال: فما أظن أني أشم ريح الجنة أبدا، فما ترى لي يارسول الله؟!

فقال النبي(ص): **تنح عني يافاسق اني أخاف أن أحترق بنارك ، فما أقربك من النار!!** ثم لم يزل (ص) يقول و يشير اليه حتى خرج من بين يديه. فذهب فأتى المدينة فتزود منها، ثم اتى الى بعض جبالها، فتعبد فيها ولبس مسحا وغلّ يديه جميعا الى عنقه، وأخذ يبكي و يدعو و يتضرع حتى مضى عليه اربعون ليلة وهو بهذه الحالة. ثم رفع يديه بعدها الى السماء وقال: اللّهم ما فعلت في حاجتي؟ ان كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي فاوح الى نبيك ، وان لم تستجب لي دعائي ولم تغفر لي خطيئتي واردت عقوبتي فعجل بنار تحرقني أوعقوبة في الدنيا تهلكني، وخلصني من فضيحة يوم القيامة، فانزل الله تبارك وتعالى على نبيه: **«والذين اذا فعلوا فاحشة، أوظلموا أنفسهم ذكروا الله واستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين».**

(آل عمران: ١٣٥ ـــ ١٣٦)

فلما نزلت هذه الآية على رسول الله(ص) خرج وهويتلوها و يبتسم، **فطلب من أصحابه ان يدلوه على ذلك الشاب التائب، فذهب اليه مع أصحابه فاذا بالشاب قائم بين صخرتين مغلولة يداه الى عنقه وقد اسود وجهه وتساقطت اشفار عينيه من البكاء فدنا منه رسول الله (ص) فاطلق يديه من عنقه ونفض التراب عن رأسه وقال له: أبشر فانك عتيق الله من النار.**

ثم قال (ص) لاصحابه: **هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول (الشاب)**، ثم تلا عليه ما أنزل الله عزوجل فيه و بشره بالجنة.

سؤال

ذكرنا أن المذنب مريض وان الذنب لايصدر الاّ عن نفس مريضة قابلة للعلاج، فلماذا شرع الاسلام الحدود والتعزيرات للمذنبين في الدنيا، وهددهم بالعذاب الأليم في الآخرة؟ هل على المريض حرج؟!

الجواب

العقاب الدنيوي والأخروي انما شرع للمذنبين لأنهم قادرون على معالجة أنفسهم بأنفسهم. المذنب قادر خلال لحظة أن يتخذ قرارا حازما بتغيير نفسه والتخلص مما به من مرض.

الامراض الجسمية تختلف عن الامراض النفسية، لان المرض الجسمي يهجم على المريض دون ارادته، ويحتاج الى علاج لايكون غالبا في متناول يد المريض، فلابد من تناول دواء وممارسة نظام غذائي معين ومراجعة للطبيب. اما الامراض النفسية فيصاب الانسان بها بمحض ارادته واختياره، و يستطيع أن يعالجها بارادته.

فالانسان المذنب انما أذنب عن اختيار، فهو لم يسترشد بهدى الله.. هدى العقل وهدى الدين، واختار طريق الشر. وكان أمامه نجدان لا نجد واحد، وكان كفورا بينما كان بامكانه أن يكون شاكرا.

ثم هو بامكانه أن يعالج نفسه بما منحه الله من ارادة، لكنه أبى أن يستثمر هذه الموهبة الالٰهية أيضا. من هنا استحق العقاب.

في حديث عن الامام الصادق يبين قدرة الانسان على معالجة نفسه، يقول:

«واجعل نفسك عدوا تجاهده وعارية تردّها فانك قد جُعِلتَ طبيب نفسك وعُرِّفت آية الصحة وبُيِّن لك الداء ودُلِلْتَ على الدواء....».[1]

---

١ ــ تحف العقول ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥.

وفي احدى خطب نهج البلاغة يقول علي (ع):

«يا أيها الانسان ماجرَّأك على ذنبك، وما غرّك بربك، وما آنسك بهلكة؟ أما من دائك بلول، أم ليس من نومك يقظة...» ثم يقول:

«فتداوَمن داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة». [1]

و ينسب اليه عليه السلام قوله:

دواؤك فـــيـــك ولا تـــبـــصـــر
وداؤك مـــنـــك ولا تـــشـــعـــر

ان اعظم امتياز وهبه الله للانسان هو هذا الاختيار، حيث يستطيع بارادته ان يضبط شهواته و يسير على طريق كماله المرسوم.

وان أخطر مايهدد هذه الارادة؛ الايمان بالجبر و بأن كل شيء مرسوم للانسان دون أن يكون له أي اختيار في ذلك. وحذر رسول الاسلام(ص) من هذا الانزلاق:

عن جابر بن عبدالله عن النبي(ص) انه قال: **«يكون في آخر الزمان قوم يعملون المعاصي ويقولون: ان الله قد قدرها عليهم، الراد عليهم كالشاهر سيفه في سبيل الله».** [2]

نظرية الجبر يرددها عادة أولئك الذين يحاولون أن يتملصوا من المسؤوليات، و يوجدوا المبررات لكل ما يرتكبون من سيئات.

لانريد هنا أن نتحدث بالتفصيل عن موضوع الجبر والاختيار فذلك يحتاج الى كتاب مستقل، بل نكتفي هنا بالقول: ان القاء تبعة ذنوبنا على القضاء والقدر قول ــ اضافة الى بعده عن الحقائق العلمية ــ ينمُّ عن ضعف في الارادة. ونحن نحس تماما بأننا مختارون في اداء فعل أو تركه.

ان مما يدل على ان الانسان مختار في فعله، احساسه بالانتصار حينما يترك ذنبا، واحساسه بالندم بعد ارتكاب الذنب. وهذه حقيقة وقف عندها علماء النفس طويلا، وخرجوا منها بنتائج مهمة. منها: ان الشخصية الاخلاقية ذات

---

١ ــ نهج البلاغة (ترجمة الفيض)، ص ٦٩٩.

٢ ــ البحار، ج ٥ ص ٤٧.

اصالة في الانسان، بينما تعتبر شهواته طفيلية على وجوده.[1]

طالما يقف الانسان على مفترق طريقين: طريق الانزلاق والسقوط في مستنقع الشهوات، وطريق التكامل والسعادة الحقيقية. فمن الناس من ينزلق الى المستنقع الآسن، ومنهم من ينتصر على أهوائه الدنيئة.

واليك بعض الامثلة من التاريخ عن الفئتين:

عمر بن سعد بين خيارين

حينما تولى عُبيد الله بن زياد امارة الكوفة، راح يمارس الطريقة الاموية في الاغراء والتخويف والتجويع، ومن ذلك انه ولى عمر بن سعد امارة الري شريطة أن يشترك في قتال الحسين بن علي ــ عليهما السلام ــ.

وهنا دخل عمر بن سعد مرحلة امتحان صعب كان عليه أن يخرج منها باحدى نتيجتين: اما الترفع عن المغريات المادية والسمو في مدارج الكمال الانساني، واما الانهيار في ارتكاب جريمة نكراء مقابل متاع دنيوي تافه. وكان عليه ان يفكر في الامر ليلة ليعطي عبيد الله بن زياد رأيه النهائي.

لم يغمض له جفن تلك الليلة، ودار في نفسه صراع عنيف عبَّر عنه بالقول:

فوَ الله ما أدري واني لحائر
أفكر في أمري على خطرين
أأترك ملك الريّ والريّ منيتي
أم اصبح مأثوما بقتل حسين

لكنه لم يخرج بنجاح من هذا الامتحان، فسقط بعد أن اختلق لنفسه تبريرات زائفة، ومنى نفسه بأمان خادعة، عبر عنها بقوله:

يقولون ان الله خالق جنة
ونار وتعذيب وغلّ يدين
فان صدقوا فيما يقولون انني
أتوب الى الرحمن في سنتين

---

١ ــ راجع: البحث عن السعادة، اللورد آو يبوري.

وان كـــذبـــوا فـــزنـــا بـــدنـــيـــا عـــظـــيـــمـــة

ومـــلـــك عـــظيم دائم الحـــجـــلين

الانتصار في اللحظات الحاسمة

في جـانـب آخر من ساحة كر بلاء نشاهد رجلا سجل في صراعه الداخلي انـتـصارا أهله لأن ينتقل من معسكر الضلال الى معسكر الهدى. انه الحر بن يزيد الـرياحي الذي كان على رأس فريق من جيش ابن زياد، واول من وقف في وجه الحسين ومنعه من الذهاب الى كر بلاء.

سـمع كلام الحسين يعظ عسكر ابن زياد، فتأثر، ووقف متأملا، ثم اتخذ قراره في تلك اللحظات الحرجة.

يقول مهاجر بن قيس: عندما احتدم القتال بين المعسكرين معسكر الحسين ومـعـسـكر ابن زياد، رأيت الحر يقترب رو يداً من معسكر الحسين. قلت له أتنوي الهـجـوم يـا ابـن يزيد؟؟ لم يجبني، ورأيت فرائصه ترتعد، تعجبت من أمره ثم قلت لـه: والله مـا رأيـتك على هذه الحال من قبل قط، ولو سئلت من أشجع أهل الكوفة لما ترددت في ذكر اسمك، فما هذه الحالة التي أنت عليها؟

قال في الجواب:

اني والله أخير نـفـسـي بين الجـنـة والـنـار، ووالله لا أخـتـار على الجنة شيئا ولو قُطعت وحُرِّقت.

قال هذا واتجه بفرسه نحو الحسين، فتاب وقاتل واستشهد بين يديه.

* * *

هـذه وامـثـالهـا مـواقـف لافـراد مروا بامتحانات يمربها كل انسان بدرجة وأخـرى، حيث يقف فيها امام خيارين، و يستطيع مع كل الموانع أن يختار بارادته طـريـق الخير والـصـلاح والـتـكـامـل، و يـسـتطيع أن ينهار و يتراجع و ينتكس في حـيـوانيته. وقـد يتذرع في هذا الانتكاس بذرائع يخال أنها تبرر سقوطه، لكن هذه الذرائع لاتخفى على الله ولاتخفى على نفس الانسان غالبا.

الله سـبـحانه ضرب في القرآن أمثلة لانواع الامتحانات الصعبة التي مرّبها الـصالحون على مرّ التاريخ وخرجوا منها بنجاح، ليؤكد بذلك أن الانسان قادر على السمو والارتقاء مهما بلغت صعوبة امتحانه.

روي عن الامام الصادق (ع) قوله:

«يؤتى بالمرأة الحسناء يوم القيامة التي قد افتتنت في حسنها، فتقول: يارب حسنت خلقي حتى لقيت ما لقيت، فيجاء بمريم (ع) فيقال: أأنت أحسن أم هذه؟ فقد حسنّاها فلم تفتتن. ويجاء بالرجل الحسن الذي قد افتتن في حسنه، فيقول: ياربّ حسنت خلقي حتى لقيت من النساء ما لقيت، فيجاء بيوسف (ع) فيقال: أأنت أحسن أم هذا؟ قد حسناه فلم يفتتن، ويجاء بصاحب البلاء الذي أصابته الفتنة في بلائه فيقول: يارب شدّدت عليّ البلاء حتى افتتنت، فيؤتى بأيوب (ع) فيقال أبليتك أشد أم بلية هذا؟ فقد ابتلي فلم يفتتن». [1]

ملخص هذا القسم

١ ــ الذنب مرض ويجب علاجه.

٢ ــ لما كان المذنب مريضا، فقد نهى الاسلام عن تعييره وتوبيخه.

٣ ــ من أجل منع سراية المرض منع الاسلام معاشرة المذنبين، وربّى المسلم على النفور من الذنب والمذنب.

٤ ــ سيرة الرسول (ص) مع المذنبين كانت بهذا الشكل.

٥ ــ المذنب يعاقب لانه مختار في الارتكاب وفي التوبة، و يستطيع بارادته أن يمتنع عن ارتكاب الذنب.

٦ ــ هناك من يلقي تبعة ذنوبه على القضاء والقدر، بينما الانسان هو المسؤول الوحيد عن ذنبه.

* * *

١ ــ الروضة من الكافي المترجم، ج ٢، ص ٣٢. بتصرف لغوي بسيط.

القسم الثالث

الذنب
يحجب الدعاء ويمنع الإجابة

من آثار الذنب:

في المرحلة الأولى ـــ سلب توفيق الدعاء.

وفي المرحلة الثانية ـــ عدم استجابته.

هـذه الحقـيقة وردت على لسان عظماء الاسلام في روايات كثيرة، وقبل ان نذكر هذه الروايات نوضح باختصار مفهوم الدعاء، وآثاره على الروح والجسم، وأهميـتـه في جميع شؤون حياة الانسان، كي يتضح اكثر معنى الروايات الاسلامية في هذا الحقل، وتزول كل شبهة بشأن سبب عدم استجابة الدعاء.

ماهو الدعاء؟

الدعاء في اللغة النداء، ودعاء العبد ربه أن يناديه لطلب، أو لقربة.

قال سبحانه: «**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعَشِيِّ يريدون وجهه**».

(الكهف: ٢٨)

وقال: «**أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء...**»

(النمل: ٤٢)

وقال سبحانه: **«أدعوا ربكم تضرعا وخفية انه لايحب المعتدين»**

(الاعراف: ٥٥)

وفي هذه الآيات وغيرها ورد الدعاء بمعنى النداء، وهكذا في الروايات، وليس معناه «الطلب» كما يتبادر الى الاذهان اليوم.

ولعل الشريعة أقرّت الدعاء من أجل ان يرتبط العبد بر به و يستمد منه في كل الاحوال، و يذكره دائما، وهذا نوع من العبادة. ورسول الله (ص) يقول:

«الدعاء مخ العبادة».[1]

والقرآن الكريم سمى الدعاء عبادة:

«ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين»

(المؤمن: ٦٠)

والعبادة في الآية هي الدعاء كما ورد في تفسيرها عن رسول الله(ص)، وعن الامام علي بن الحسين (ع).[2]

الدعاء سلاح المؤمن

الدعاء ــ اذن ــ نوع من العبادة والارتباط بين العبد ور به، وهذا الارتباط له الا ثر الكبير في بث الطمأنينة في نفس الانسان، وأولئك المحرومون من هذه العبادة فاقدون لسند عظيم وعون كبير في مواجهة المشاكل. فهم كمن هو في الهيجا بدون سلاح.

يقول رسول الله (ص):

«الدعاء سلاح المؤمن».[3]

و يقول أميرالمؤمنين علي (ع):

«الدعاء ترس المؤمن».[4]

و يقول الامام علي بن موسى الرضا (ع) لاصحابه:

---

١ ــ بحارالأنوار، ج ٩٣، ص ٣٠٠.

٢ ــ راجع بحارالأنوار، ج ٩٣، ص ٣٠٠ والصحيفة السجادية، دعاء رقم ٤٥.

٣ ــ و ٤ ــ أصول الكافي، ج ٤، ص ٢١٣ و ٢١٤.

«**عليكم بسلاح الانبياء**» فقيل: وما سلاح الانبياء؟ قال: «**الدعاء**».[1]

وروي عن رسول الله (ص) قوله:

«**ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من عدوّكم ويدرّ رزقكم؟**» قالوا: نعم، قال: «**تدعون بالليل والنهار فان سلاح المؤمن الدعاء**».[2]

وعن علي (ع):

«**ادفعوا أمواج البلاء بالدّعاء**».[3]

لو امعنا النظر في هذه الاحاديث وامثالها، لألفينا ان الدعاء له اثر نفسي عظيم، سواء أطلب الانسان في دعائه من الله شيئا ام لم يطلب.

وهذه حقيقة فهمها علماء النفس اليوم بوضوح وكتبوا حولها المقالات والبحوث القائمة على أساس الاحصائيات.

لقد دلت هذه الاحصائيات على ان الذين يعيشون عالم الدعاء والاتصال بالله قلّما يعتريهم اليأس والسأم. وقلّما ينهزمون أمام الحوادث المؤلمة، وقلما يفقدون الآمال في المستقبل.[4]

هذه الحقيقة قررها الامام محمد بن علي الباقر (ع) في حديث مخاطبا احد أصحابه: «**ألا أخبرك بما فيه شفاء من كل داء حتى السأم؟**» قال: بلى قال: «**الدعاء**».

الدعاء في جميع الاحوال

لم يشرع الدعاء لمواقع الشدة والضنك كما يتبادر الى أذهان بعض الناس، والله سبحانه ذمّ أولئك الذين لايدعون ربهم الا في حالات الضرّ، قال:

«**واذا مسَّ الانسانَ الضرُّ دعانا لجنبه أوقاعداً أوقائما، فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا الى ضرٍّ مسّه كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون**».

(يونس: ١٠)

و يقول سبحانه في موضع آخر:

---

١ ــ اصول الكافي، ج ٤، ص ٢١٤.

٢ ــ بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٩١.

٣ ــ نهج البلاغة، شرح الفيض (ف)، ص ١١٤٤.

٤ ــ راجع في المجال كتابات «ديل كارنيجي والكسيس كارل».

«واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض»

(فصلت: ٥١)

وهذا المعنى ورد أيضا في آيات أخر من سورة يونس، والروم، ولقمان، والعنكبوت.

وفي الروايات حث أئمة الدين على الدعاء في كل حال، في الشدة والرخاء، وروي أن الداعي في وقت الشدة فقط لايستجاب له دعاء:

«عن أبي عبدالله (ع) انه قال: **من تقدم في الدعاء استجيب له اذا نزل به البلاء، وقالت الملائكة صوتٌ معروف ولم يُحجَب عن السماء، ومن لم يتقدم في الدعاء لم يستجب له اذا نزل البلاء، وقالت الملائكة: انَّ ذا صوتٌ لانعرفه**».[1]

وفي رواية أخرى: «**قيل: اين كنت قبل اليوم**».[2]

وعنه (ع) أيضا:

«**من سَرَّهُ أن يستجاب له في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء**».[3]

وعن الامام موسى بن جعفر (ع):

«**كان علي بن الحسين عليهما السلام، يقول: الدعاء بعدما ينزل البلاء لاينفع**».[4]

وفي الحديث القدسي:

«**أوحى الله الى داود صلوات الله عليه: اذكرني في ايام سرائك حتى استجيب لك في أيام ضرائك**»[5]

مما تقدم نفهم واحدا من أسباب عدم استجابة الدعاء، فالهدف من كل هذا التأكيد على الدعاء هو توثيق العلاقة بين العبد وربه، كي يكون العبد قويا معتمداً متكلاً على الله حين تواجهه الشدائد وتلاقيه الصعاب، وكي لايعتريه الضعف والوهن والهزيمة.

١و٢ــ اصول الكافي، ج٤، ص٢١٩ــ ٢٢٠.

٣ــ اصول الكافي، ج٤، ص٢١٩ــ٢٢٠.

٤ــ اصول الكافي، ج٤، ص٢١٩ــ ٢٢٠، ومكارم الاخلاق (المترجم) ج ٢ ص٨

٥ــ بحارالانوار، ج٩٣، ص ٣٨١.

ومن المناسب أن نعرض هنا مكانة الدعاء في حياة بعض الانبياء وعباد الله الصالحين:

يونس في بطن الحوت

يونس من أنبياء الله العظام، دعا قومه في مدينة نينوى الى عبادة الله، لكنهم أبوا أن يقبلوا دعوته، ولم يؤمن منهم الا القليل.. القليل جدا.

خرج يونس من مدينة نينوى غضباً بعد أن أعياه التعب، ودعا على قومه ــ حسب بعض الروايات ــ وطلب من الله أن ينزل عليهم البلاء.

وصل يونس الى ساحل البحر، فرأى جماعة يركبون سفينة ويهمون بالسفر، فطلب منهم أن يأخذوه معهم. فوافقوا، وركب يونس.

وما أن مخرت السفينة حتى هبت ريح عاتية وماج البحر شديدا، وتلاعبت الأمواج بالسفينة، ففزع الركاب، وقرروا أن يلقوا واحدا منهم في البحر للتقليل من وزن السفينة، أو لإرضاءِ الآلهة كما كانوا يعتقدون.

اقترعوا بينهم فوقعت القرعة على يونس، لكنهم أبوا ان يعجلوا بالقائه لبهائه وجلاله، فاقترعوا ثانية وثالثة فخرجت كل مرة باسم يونس.. وكانت النتيجة أن ألقوه في البحر.

في هذه اللحظات سخر الله حوتا لتبتلع يونس دون أن تأكله، وان تحفظه في بطنها.

واضح مدى الضنك الذي عاناه يونس وهو في بطن الحوت، وقد سمَّى القرآن هذا المكان بالظلمات.[1]

«وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إله إلّا انت سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين»

(الانبياء:٨٧)

انظر الى مكانة الدعاء وأهميته. وأيُّ منج يستطيع أن ينقذ الانسان

١ ــ عن الامام الباقر(ع): ان المقصود بالظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر.

ويمنحه السكينة والطمأنينة في مثل هذه الظروف سوى الدعاء؟!

يعقوب(ع) في فراق يوسف وبنيامين

يعقوب النبي(ع) كان يسكن مع أهله في أرض كنعان من بلاد الشام. وكان له اثنا عشر ابنا، كلهم شبان أقوياء، بينهم واحد يفوقهم نبوغا وحسنا وأدبا، ولذلك استأثر بحب أبيه أكثر من بقية اخوته، وكان ليوسف بين اخوته شقيق اسمه بنيامين وكان محبوبا لدى ابيه أيضا. هذا الحب الفائق من الأب ليوسف وبنيامين هو الذي أثار حسد بقية الاخوة فتآمروا على يوسف **«إذ قالوا ليوسف وأخوه احب الى أبينا منا»**، فلماذا لانتخلص من يوسف ونحن عصبة؟!

قال أحدهم: **«أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا»** أي في أرض بعيدة.

وقال آخر: **لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب»** أي في قعر البئر.

وفعلوا فعلتهم فاخذوه معهم يوما والقوه في قعر بئر، **«وجاؤوا أباهم عشاءً يبكون، قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئب...»**، **«وجاؤوا على قميصه بدم كذب»**.

وهنا برزت قدرة هذا النبي الكريم على الصبر والاستعانة بالله اذ قال:

«... بل سولت لكم انفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

وشاء الله أن تلتقط يوسف من البئر قافلة متجهة الى مصر، فاخذوه معهم، و باعوه، وتوالت الاحداث فاصبح يوسف مسؤول خزائن أرض مصر.

وحلت في المنطقة سنة مجدبة انتشر فيها القحط، لكن يوسف بتدبيره و حسن ادارته وقى مصر من المجاعة، بل استطاع ان ينقذ سكان المدن القريبة من مصر من المجاعة أيضا، فاتجهت القوافل من كل حدب وصوب نحو مصر تطلب الطعام. وكان من بينها قافلة من كنعان فيها ابناء يعقوب العشرة الذين تآمروا على يوسف.

حين بلغوا يوسف عرفهم ولم يعرفوه، فسألهم عن حالهم ووضعهم، فقصوا عليه كل شيء. ثم طلب منهم ان يأتوا باخيهم الحادي عشر (بنيامين) معهم في سفرهم القادم. وقال لهم: **«فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون»**.

«قالوا سنراود عنه أباه» أي سنطلبه منه بجهدنا وانا لفاعلون...

«فلما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل، فارسل معنا اخانا نكتل و انا له لحافظون».

لكن الوالد لم يأمنهم لأنه مرّ بتجربة مرّة معهم بشأن يوسف «قال هل آمنكم عليه الاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل» ومع ذلك فقد اسلم امره لله وارسله معهم وقال: «فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين».

ومرت الليالي والايام ثقالا على يعقوب ينتظر عودة أبنائه ومعهم بنيامين.. ثم عادوا وليس معهم بنيامين.

من الصعب أن نتصور عمق المأساة التي حلت في هذه اللحظات بهذا النبي الكريم ولكنه امام لغط أبنائه لم يزد على ان يقول: «.. بل سوّلت لكم انفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله ان يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم».

واراد الابناء انْ يسلوا والدهم ويخففوا من حزنه، لكنه أصرَّ على ارتباطه الوثيق في همومه بالله دون سواه قائلا:

«.. انما اشكو بثي وحزني الى الله، وأعلم من الله مالا تعلمون».

هذه القصة فيها العبر والدروس الكثيرة، ومنها درس الاتصال الوثيق بالله تعالى، ومدى أثر هذا الاتصال في حفظ توازن الانسان وصلابته ومقاومته عند الشدائد.

امرأة مسلمة صابرة

كانت في البادية امرأة اسمها أم عقيل، نزل عليها يوما ضيفان، وكان ولدها عقيل مع الابل، فبلغها ان الابل ازدحمت على ولدها فرمت به في البئر، فهلك .

قالت المرأة للناعي: انزل واقض ذمام القوم، ودفعت اليه كبشا فذبحه واصلحه، وقرب الى القوم الطعام، فجعلوا يأكلون و يتعجبون من صبرها.

قال الراوي: فلما فرغنا خرجت الينا، وقالت: ياقوم هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئا. فقلت: نعم قالت: فاقرأ علي آيات أتعزى بها عن ولدي، فقرأت: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة....» الآية. فقالت: السلام عليكم. ثم صفت قدميها وصلت ركعات، ثم قالت اللهم اني فعلت ما أمرتني،

فانجز لي ما وعدتني به.[1]

الذنب يقطع ارتباط العبد بربه

بعد ان اتضحت الى حدّ ما اهمية الدعاء والارتباط بالله سبحانه في حياة الانسان وتكييف شخصيته نعود الى أصل بحثنا فنقول:

استنادا الى ما ورد من أحاديث وروايات عن أئمة الدين، فان الذنب هو من العوامل المؤثرة الخطرة القادرة على قطع ارتباطنا بالله، وعلى سلب توفيق الدعاء منا، وحرماننا من نعمه وعطاياه.

هذه الحقيقة عبرت عنها الأحاديث بأساليب متعددة. منها عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) انه قال:

«كان ابي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته، ان القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتى تغلب عليه فتصير أعلاه أسفله». [2]

وعنه أيضا قال:

«اذا أذنب الرجل خرجت في قلبه نكتة سوداء فان تاب انمحت، وان زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبدا». [3]

وفي حديث آخر قال:

«ان الله أوحى الى داود: انَّ أدنى ما أنا صانع بعبد غير عامل بعلمه من سبعين عقوبة باطنية ان انزع من قلبه حلاوة ذكري». [4]

وجاء رجل الى أميرالمؤمنين علي عليه السلام فقال: يا أميرالمؤمنين اني قد حرمت الصلاة بالليل قال: فقال أميرالمؤمنين(ع):

«أنت رجل قد قيدتك ذنوبك». [5]

وعن الصادق (ع) أيضا:

---

١ ــ سفينة البحار، مادة (صبر).

٢ ــ اصول الكافي، ج ٣، ص ٣٧٠.

٣ ــ اصول الكافي، ج ٣ ص ٣٧٣.

٤ ــ دارالسلام، ج ٣، ص ٢٠٠.

٥ ــ علل الشرائع، ج ٢، ص ٥١.

«ان الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل [1] وان العمل السيء اسرع في صاحبه من السكين في اللحم».[2]

حديث آخر

روى الشيخ الصدوق بسنده عن الامام الصادق (ع) قال:

لما نزلت الآية «والذين اذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله...»[3] الى آخر الآية، صعد ابليس جبلا بمكة يقال له ثور فصرخ باعلاصوته بعفاريته، فاجتمعوا اليه. فقالوا: ياسيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟! فقام عفريت من الشياطين فقال أنا لها بكذا وكذا. قال: لست لها. فقام آخر فقال مثل ذلك. فقال لست لها فقال الوسواس الخناس: أنا لها. قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئة فاذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار فقال: أنت لها. فوكله بها الى يوم القيامة».[4]

يتضح من هذا الحديث كيف أن الذنب وسيلة بيد الشيطان يدفع به الانسان نحو الشقاوة و يبعده بعد ذلك من رحمة الله سبحانه.

الذنب يمنع استجابة الدعاء

وهنا نبحث العوامل التي تحول دون استجابة الدعاء بعد ان يحصل الانسان على توفيق الدعاء.

في دعاء (كميل) [5] عبارات ترتبط بموضوعنا، مثل:

---

١ ــ لعل تأكيد الحديث على صلاة الليل دون غيرها من العبادات هو ان هذه الصلاة أبعد العبادات عن الرياء، فالعبد يؤديها في جوف الليل بمعزل عن الناس، يصارع فيها الظروف الجوية والنعاس والخلود الى الراحة، لادافع له فيها سوى مناجاة الله والتقرب اليه.

من هنا قال الصادق (ع): شرف المؤمن صلواته بالليل.. (الوسائل ج ١ص ٥١٤).

وقال: الركعتان في جوف الليل أحبّ اليّ من الدنيا وما فيها. (الوسائل ج ١ ص ٥١٦).

٢ ــ اصول الكافي، ج ٣، ص ٣٧٤.

٣ ــ آل عمران: ١٣٥ ــ ١٣٦.

٤ ــ أمالي الصدوق، ص ٤٦٥.

٥ ــ هو الدعاء المروي بطريق كميل بن زياد عن أمير المؤمنين علي (ع).

«اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء».[1]

ومثل:

«فأسألك بعزتك أن لايحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي»

سؤال موجه الى أميرالمؤمنين علي (ع)

خطب علي (ع) الناس يوم الجمعة فقال في نهاية خطبته:

«أيها الناس سبع مصائب نعوذ بالله منها: عالم زلّ، وعابد ملّ، ومؤمن خلّ، ومؤتمن غلّ، وغني أقلّ، وعزيز ذلّ، وفقير اعتلّ».

فقام اليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين لم لا تستجاب دعواتنا وقد قال الله سبحانه: **«أدعوني استجب لكم»؟!**

أجاب الامام:

«ان قلوبكم خانت بثماني خصال :

أولها: انكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه كما أوجب عليكم، فما أغنت عنكم معرفتكم شيئا.

والثانية: انكم آمنتم برسوله ثم خالفتم سنته وأمتّم شريعته، فأين ثمرة ايمانكم؟!

والثالثة: انكم قرأتم كتابه المنزل عليكم فلم تعملوا به، وقلتم سمعنا وأطعنا ثم خالفتم!

والرابعة: انكم قلتم تخافون من النار، وانتم في كل وقت تقدمون اليها بمعاصيكم، فأين خوفكم؟!

والخامسة: انكم قلتم ترغبون في الجنة، وانتم في كل وقت تفعلون ما يباعدكم منها فاين رغبتكم فيها؟!

والسادسة: انكم أكلتم نعمة المولى فلم تشكروا عليها!

والسابعة: إن الله أمركم بعداوة الشيطان، وقال: إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، فعاديتموه بلاقول وواليتموه بلامخالفة.

والثامنة: انكم جعلتم عيوب الناس نصب أعينكم وعيوبكم وراء ظهوركم،

---

١ ــ قد يكون حبس الدعاء بمعنى عدم التوفيق للدعاء، وتكون العبارة مرتبطة بالفصل السابق. أو بمعنى عدم الاستجابة فترتبط بفصلنا هذا.

تلومون من أنتم أحق باللوم منه.

فأي دعاء يستجاب لكم مع هذا وقد سددتم أبوابه وطرقه؟! فاتقوا الله وأصلحوا أعمالكم، وأخلصوا سرائركم وامروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فيستجيب لكم دعاءكم»[1]

كيف يتجه المذنب الى ربه؟

علّمنا الاسلام ان ندعو الله بالاعتراف أوّلاً بذنوبنا، ونستغفر الله منها، ونطلب منه العفو، ثم نقدم بين يديه حاجاتنا.

تعاليم الامام الصادق (ع) في هذا المجال

جاء رجل الى الامام الصادق (ع) فقال له: آيتان في كتاب الله لا أدري ما تأويلهما.

قال الامام: «وما هما؟».

قال: قوله تعالى: «أدعوني استجب لكم» ثم أدعو، فلا أرى الاجابة.

قال له الامام: «أفترى الله تبارك وتعالى أخلف وعده؟!»

قال: لا، قال: «الآية الأخرى؟!»

قال الرجل: قوله تعالى: «وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين»، فأنفق فلا أرى خلفا.

قال: «أفترى الله أخلف وعده؟!»

قال: لا. قال: «فَلِمَ؟» قال: لا أدري!

قال الامام الصادق (ع): «لكني أخبرك ان شاء الله تعالى، اما انكم لو أطعتموه فيما أمركم به ثم دعوتموه لأجابكم ولكن تخالفونه وتعصونه فلا يجيبكم.

واما قولك تنفقون فلا ترون خلفا، أما انكم لو كسبتم المال من حله ثم أنفقتموه في حقه، لم ينفق رجل درهما الاّ أخلفه الله عليه.

ولو دعوتموه من جهة الدعاء لأجابكم وان كنتم عاصين».

قال الرجل: وما جهة الدعاء؟

---

١ ــ سفينة البحار، ج ١، ص ٤٤٨ ــ ٤٤٩.

قال: الامام: «اذا أديت الفريضة مجدت الله وعظّمته، وتمدحه بكل ماتقدر عليه وتصلي على النبي (ص)، وتجتهد في الصلاة عليه، وتشهد له بتبليغ الرسالة، وتصلي على أئمة الهدى (ع)، ثم تذكر بعد التحميد لله والثناء عليه، والصلاة على النبي(ص) ما أبلاك وأولاك ، وتذكر نعمه عندك وعليك ، وما صنع بك ، فتحمده، وتشكره على ذلك، ثم تعترف بذنوبك ذنب ذنب*، وتُقِرُّبها أوبما ذكرت منها، وتجمل ما خفي عليك منها، فتتوب الى الله من جميع معاصيك ، وأنت تنوي أن لا تعود، وتستغفر منها بندامة وصدق نية وخوف ورجاء ويكون من قولك : اللّهم اني اعتذر اليك من ذنوبي واستغفرك وأتوب اليك ، فاعني على طاعتك ، ووفقني لما أوجبت عليّ من كل ما يرضيك ، فاني لم أر أحدا بلغ شيئًا من طاعتك الا بنعمتك عليه قبل طاعتك ، فانعم عليّ بنعمة أنال بها رضوانك والجنة. ثم تسأل بعد ذلك حاجتك فاني أرجو ان لايخيبك ان شاء الله تعالى». [1]

وفي هذا المجال وردت روايات أخرى تؤمل المذنبين كي لايتسرب اليأس الى نفس المذنب ولاينصرف عن الدعاء.

التفتوا الى هذا الحديث

قال ابو عبد الله الصادق (ع): «**كان في بني اسرائيل رجل، فدعا الله أن يرزقه غلاما ثلاث سنين، فلما رأى ان الله لايجيبه قال: يارب! أبعيد أنا منك فلا تسمعني، أم قريب أنت مني فلا تجيبني؟! قال: فأتاه آت في منامه فقال: انك تدعو الله عزوجل منذ ثلاث سنين بلسان بذيّ وقلب عات غير تقيّ، ونية غير صادقة، فاقلع عن بذائك، وليتق الله قلبك ، ولتحسن نيتك . قال: ففعل الرجل ذلك، ثم دعا الله، فولد له غلام**». [2]

ممّا تقدم نفهم ان أحد موانع طريق استجابة الدعاء الذنب، ونذكر هنا بعض ألوان الذنوب التي تحول دون استجابة الدعاء:

عن الامام علي بن الحسين السجاد (عليهما السلام) انه قال:

«**والذنوب التي تردّ الدعاء وتظلم الهواء: عقوق الوالدين**». [3]

---

* ــ الظاهر انه خطأ طباعي والصحيح «ذنبا ذنبا» لان محلها النصب. المصحح.

١ ــ فلاح السائل ص ٣٨ ــ ٣٩.

٢ ــ اصول الكافي، ج ٤، ص ١٦.

٣ ــ معاني الاخبار، ص ٢٧٠.

وعنه (ع) أيضا:

«والذنوب التي تردّ الدعاء: سوء النية وخبث السريرة، والنفاق مع الاخوان، وترك التصديق بالاجابة، وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها، وترك التقرب الى الله عزوجل بالبر والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القول». [1]

والذنوب عامة لها أثر في منع استجابة الدعاء كما مرّ في الروايات السابقة.

الشروط الأخرى لاستجابة الدعاء

من أجل ان لايتصور احد أن المانع الوحيد لاستجابة الدعاء هو الذنب، ولنجيب على سؤال من يقول: لماذا لا تستجاب أحيانا دعوة اولياء الله والمعصومين، او تتأخر استجابتها؟ نتحدث هنا باختصار عن الشروط الاخرى لاستجابة الدعاء ذاكرين بعض الآيات والروايات في هذا المجال، ولا نستطيع هنا ان نفصل الحديث في هذا الموضوع لانه خارج عن بحثنا، ولان التفصيل فيه يحتاج الى كتاب مستقل.

١ ــ ان يكون الدعاء صادرا من اعماق الانسان، لاأن يكون مجرد لقلقة لسان. أي ان يكون كل وجود الانسان طلباً من الله وتوجهاً اليه. وهذا ما نفهمه من قوله سبحانه:

«أمن يجيب المضطر اذا دعاه و يكشف السوء»

(النحل: ٦٢)

فهذا المضطر يتجه بالدعاء عادة بكل وجوده و يصدر الدعاء من أعماق قلبه.

ونستطيع أن نفهم هذا المعنى أيضا من قوله سبحانه:

«واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون»

(البقرة: ١٨٦)

وعبارة «اذا دعان» تفهم الدعوة الحقيقية كما يقول المفسرون. كقولنا:

---

١ ــ معاني الاخبار، ص ٢٧١.

اكرم العالم اذا كان عالما. أي اذا كان عالما واقعيا.

وتشير الروايات أيضا الى هذه الحقيقة، في حديث عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع):

«ان الله لايستجيب دعاءً بظهر قلب ساه، فاذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن الاجابة». [1]

وعنه أيضا:

«اذا دعوت فأقبل بقلبك فظن حاجتك بالباب». [2]

وقد عبر الإمام الصادق (ع) عن هذا المفهوم بأسلوب آخر فقال:

«اذا اراد أحدكم ان لايسأل ربه شيئا الاّ أعطاه فلييأس من الناس كلهم ولايكون له رجاء الاّ من عند الله، فاذا علم ذلك من قلبه لم يسأله شيئا الا أعطاه». [3]

٢ ــ الدعاء لايعوض عن العمل

اذا كان بالامكان تحقيق أمر من الأمور بالعمل، فلا يجوز الاكتفاء بالدعاء، اذ ان الدعاء لايعوض عن العمل. ليس الدعاء أن نجلس متقاعسين ثم نرفع عقبرتنا بالدعاء أن ينجز الله أعمالنا!

قال رسول الله (ص):

«الداعي بلا عمل كالرامي بلاوتر». [4]

ذلك لان الله أبى الاّ ان تجري الامور باسبابها وعللها، ولايجوز أن نأمل من الدعاء نتيجة تخالف سنن الكون.

لابد من العمل أولا، ثم الدعاء. لابد من حرث الأرض ونثر البذور وسقيها ثم بعد ذلك الدعاء.

قال الامام جعفر بن محمد الصادق (ع):

«أربعة لايستجاب لهم دعاء:

ــ رجل جالس في بيته يقول: يارب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالطلب؟

---

١ و ٢ ــ بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٣٠٥.

٣ ــ عدة الداعي، ص ٩٧.

٤ ــ بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٣١٢..

ـ ورجل كانت له امرأة فدعا عليها فيقول: ألم أجعل أمرها بيدك ؟

ـ ورجل كان له مال فأفسده، فيقول: يارب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالاقتصاد؟ ألم آمرك بالاصلاح؟ ثم قرأ: (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما).

ـ ورجل كان له مال فأدانه بغير بينة فيقول: ألم آمرك بالشهادة؟» [1]

سيرة رسول الله وأولياء الله الصالحين تعلمنا ان الدعاء لايغني عن العمل. فرسول الله (ص) في غزواته كان يفعل ما يفعله كل قائد محنك خبير في الحروب من تنظيم لقواته وانتخاب للمكان والزمان المناسبين للحرب، وتجهيز لافراده.. كل ذلك يفعله، ثم يرفع يديه متضرعا الى الله سبحانه أن ينصر المسلمين.

الاخلاص في الدعاء

من شروط استجابة الدعاء هو الاتجاه الى الله بقلب مخلص مؤمن واثق بالاجابة. من هنا جاء الحث على الدعاء بعد الصلاة، لان الصلاة تمهد القلب للخلوص في الدعاء.

قال رسول الله (ص):

«من أدى فريضة فله عند الله دعوة مستجابة». [2]

وعن الامام الصادق (ع):

«اذا رق احدكم فليدع، فان القلب لايرق حتى يخلص». [3]

وعن الرسول (ص):

«اغتنموا الدعاء عند الرقة فانها رحمة». [4]

وعن ابي عبدالله الصادق (ع):

«اذا دعوت فظن حاجتك بالباب». [5]

---

١ ـ بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٣٦٠.

٢ ـ بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٣٤٤.

٣ ـ مكارم الاخلاق، ص ٣١٥.

٤ ـ بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٣٤٧.

٥ ـ بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٣٠٥.

ولعل هذا الحديث عن الرسول (ص) يشير الى هذا المعنى اذ يقول:

«ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده». [1]

وفي روايات أخَر أضاف المعصوم دعوة الصائم، والمحارب في سبيل الله، والمريض والحاج. ولعل الجامع بين كل هؤلاء هو ما ذكرناه من خلوص القلب وصفاء النفس.

ملاحظات حول الدعاء

١ ـــ قد تتوفر في نظرنا كل شروط الدعاء، لكن استجابته ليست من مصلحتنا ولا من مصلحة الآخرين. لاننا لانحيط بما يضرنا وما ينفعنا على الصعيد الفردي والاجتماعي. فقد نُصِرُّ على تحقيق أمر لو انكشفت لنا عواقبه ما طلبناه:

«عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شرلكم والله يعلم وانتم لا تعلمون»

(البقرة: ٢١٦)

٢ ـــ قد نطلب شيئا ونسأل الله تحقيقه، و يتضرع آخر الى الله طالبا عدم تحقيقه، فماذا يفعل الله تجاه هاتين الدعوتين المتناقضتين؟

التفتوا الى هذا الحديث

جاء في حديث عن الامام الصادق (ع): **«كان في بني اسرائيل رجل له ابنتان، فزوج احداهما من رجل زرّاع، وزوج الاخرى من رجل فخّار، ثم زارهما فبدأ بامرأة الزرّاع، فقال لها: كيف حالكم؟ فقالت: قد زرع زوجي زرعا كثيرا، فان ارسل الله السماء فنحن أحسن بني اسرائيل حالا. ثم مضى الى امرأة الفخار فقال لها: كيف حالكم؟ فقالت قد عمل زوجي فخارا كثيرا، فان امسكت السماء فنحن أحسن بني اسرائيل حالا، فانصرف وهو يقول: اللّهم أنت لهما، وكذلك نحن».** [2]

٣ ـــ قد ندعو و يستجاب الدعاء، ولكن تحققه في الواقع الخارجي يتأخر لمصلحة من المصالح، خلافا لرغبتنا في الاستعجال. وقد يحدث هذا للانبياء كما

---

١ ـــ بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٣٥٩.

٢ ـــ روضة الكافي، ج ١، ص ١١٢.

في قصة موسى وهارون اذ تضرعا الى الله، وقال موسى:

«.. ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالا في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم». [١]

ثم قال لهما الله:

«.. قد أجيبت دعوتكما». [٢]

وعن الامام الصادق (ع):

«ان المدة بين هذه الاستجابة وغرق فرعون أربعون عاما!» [٣]

وفي بعض الروايات ان المدة تستغرق عشرين عاما أو اكثر او اقل. [٤]

درس من ابراهيم (ع)

روي عن الامام الصادق (ع) ان ابراهيم خليل الرحمن (ع) كان يطلب مرعى لغنمه في جبل بيت المقدس فلقي رجلاً عابدا، ودار بينهما حديث.

قال ابراهيم: أي الايام أعظم؟

قال الرجل: يوم الدين يوم يدان الناس بعضهم من بعض.

قال: فهل لك ان ترفع يدك وارفع يدي فتدعو الله عزوجل أن يؤمننا من شر ذلك اليوم؟

الرجل العابد: وما تصنع بدعوتي، فوالله ان لي لدعوة منذ ثلاثين سنة، ما أجبت بشيء.

ابراهيم (ع): أولا أخبرك بشيء حبس دعوتك؟

ــ بلى.

ــ ان الله عزوجل اذا أحب عبدا احتبس دعوته ليناجيه و يسأله و يطلب اليه، واذا أبغض عبدا عجل له دعوته أو ألقى في قلبه اليأس منها. [٥]

وهنا لابد من التأكيد بأن الاحاديث السابقة تفيد أيضا عدم جواز

---

١ و ٢ ــ يونس: ٨٨ ــ ٨٩.

٣ و ٤ ــ بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٣٧٥.

٥ ــ أمالي الصدوق، ص ٢٩٧.

اليأس وتشير الى ضرورة استمرار الفرد في الدعاء والتضرع لان الدعاء ــ بذاته ــ عبادة كما قلنا، كما ان له تأثيرا على النفس وهذا التأثير سيغير من مصير الانسان في الآخرة. لذلك روي عن رسول الله (ص) قوله:

«رحم الله عبدا طلب من الله حاجته، وألح في الدعاء، استجيب له أولم يُستجب». [1]

وقال ايضا:

«ما من مسلم يدعو الله بدعاء الا يستجيب له، فإما ان يعجل في الدنيا، واما أن يدخر للآخرة، واما أن يكفر عن ذنوبه». [2]

فارتباط الانسان بالله تكامل للانسان وتطهير لنفسه وسمو لروحه. والدعاء وسيلة لهذا الارتباط، ولذلك أحب الله عبدا يكثر من الدعاء، واحب ان يسمع دوما تضرع عبده الصالح، ولعل الرواية التالية تشير الى هذا المفهوم:

قال ابوعبدالله الصادق (ع):

«ان العبد الولي لله يدعو الله عزوجل في الأمر ينوبه فيقول للملك الموكل به: اقض لعبدي حاجته، ولا تعجلها، فاني أشتهي ان اسمع نداءه وصوته، وان العبد العدو لله ليدعو الله عزوجل في الامر ينوبه فيقال للملك الموكل به: اقض حاجته وعجلها فاني اكره ان اسمع نداءه وصوته.

قال: **«فيقول الناس: ما أعطي هذا الا لكرامته، وما منع هذا الا لهوانه».** [3]

ان حب الله سبحانه لحالة تضرع الانسان المؤمن هذه الحالة المؤدية الى كمال هذا الانسان وسموه.. قد تكون هي سبب ما عبرت عنه الروايات بالابتلاء:

فعن الامام الصادق(ع) انه قال: **«ان اشد الناس بلاءً الانبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الامثل فالامثل».**

وعنه أيضا:

«سئل رسول الله (ص) من أشد الناس بلاءً في الدنيا؟ فقال: النبيون، ثم

---

١ ــ اصول الكافي، ج ٤، ص ٢٢٤.

٢ ــ بحار الانوار، ج ٩٣، ص ٣٧٨.

٣ ــ اصول الكافي، ج ٤، ص ٢٤٦.

الامثل فالامثل، ويُبتلى المؤمن بعدُ على قدر ايمانه وحسن أعماله، فمن صح ايمانه وحسن عمله اشتد بلاؤه ومن سخف ايمانه وضعف عمله قل بلاؤه».

وعنه (ع):

«ان الله اذا أحب عبدا غتّه بالبلاء غتّاً وانا واياكم (ياسدير) لنصبح به ونمسي».[1]

وما اجمل ما قيل:

«لو استجيب للعبد في كل ما سأل لخرج من حد العبودية، وانما أمر بالدعاء ليكون عبدا، والله يفعل ما يشاء».[2]

خلاصة القسم الثالث

١ ــ الذنب ــ في المرحلة الاولى ــ يحرم الانسان من أعظم نعم الحياة... من نعمة الدعاء والتضرع والارتباط بالله.

٢ ــ الدعاء والارتباط بالله يصعد مقاومة الانسان وصموده أمام الهزات والحوادث.

٣ ــ الذنب ــ في المرحلة الثانية ــ يمنع استجابة الدعاء.

٤ ــ على المذنب ان يستغفر أوّلاً، ثم يدعو ليستجاب دعاؤه.

٥ ــ الذنوب التي تمنع استجابة الدعاء هي بالدرجة الاولى: عقوق الوالدين، والخبث، والنفاق، وعدم الايمان باستجابة الدعاء، وتأخير الصلاة عن اوقاتها، والبذاء والفحش في القول.

٦ ــ طهارة النفس ليست وحدها شرطا لاستجابة الدعاء، بل هناك شروط أخرى.

٧ ــ قد تتوفر جميع الشروط ولا يستجاب الدعاء، ولكن لا يجوز اليأس من الدعاء في أي وقت من الاوقات.

٨ ــ الدعاء على أي حال له تأثيره.

---

١ ــ أصول الكافي، باب شدة ابتلاء المؤمن، ج ٣، ص ٣٥١ ــ ٣٥٢ .

٢ ــ المخلاة، الشيخ البهائي، ص ٧٧.

القسم الرابع

الذنب
يغير النعم ويبيد الأمم

المردود الاجتماعي للاعمال

اجمعت المدارس الفكرية القديمة والحديثة على تأثير العمل الفردي على الواقع الاجتماعي، لكنها اختلفت في تشخيص العامل الاساس المؤثر في التغييرات الاجتماعية.

المدارس الوضعية ذهبت غالباً الى البحث عن هذا العامل خارج وجود الانسان، فبعضها وقف عند العوامل الجغرافية واعتبرها هي العامل الاساس في التغيير الاجتماعي، و بعضها وقف عند العامل الاقتصادي، وحتى التي بحثت عن العامل داخل الانسان تبنت عوامل داخلية في الانسان خارجة عن ارادته كعامل الغريزة الجنسية او عامل الدم ونوع الجنس، واعتبرتها هي المحركة لمسيرة التاريخ.

اما المدرسة الالهية الاسلامية فقد نظرت الى الانسان باعتباره محور التغير، ونظرت الى النفس الانسانية باعتبارها منطلق كل تقدم او تدهور في المرافق السياسية والاقتصادية للمجتمع.

الفلاسفة الاسلاميون سلكوا سبلا معقدة شتى لتبيين العلاقة المنطقية العقلية بين فعل الفرد ووضع المجتمع، ولا حاجة بنا لاستعراض آراء هؤلاء

الفلاسفة، فذلك يحتاج الى كتاب مستقل. بل نكتفي هنا بعرض النظرية الاسلامية من خلال ما قدمته من نصوص صريحة واضحة.

سُنَّة كونيَّة

القرآن يربط بين عمل الافراد والتغييرات الاجتماعية السلبية او الايجابية، و يعتبر هذا الربط سنة كونية. فهو يتحدث ــ مثلاً ــ عن المتآمرين على الرسالة وصاحبها، ثم يربط بين هذا التآمر وما يمكن ان يحدث من تغير اجتماعي يطيح بأصحاب التآمر، و يسمي ذلك «سنة الله» فيقول:

«لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم، ثم لايجاورونك فيها الا قليلا. ملعونين اين ما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا. سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا».

(الاحزاب: ٦٠ ــ ٦٢)

وعن مشركي قريش، يتحدث القرآن، فيذكر شوقهم للهداية، ثم اعراضهم عن طريق الحق بعد اعلان الدعوة لاستكبارهم ولمكرهم السيئ، ثم تشير الآية الى عاقبة المستكبرين والماكرين باعتبار أنها سنة لا تقبل التغيير:

«واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاء هم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم، فلما جاء هم نذير ما زادهم الا نفورا. استكبارا في الارض ومكْرَ السيئ ولايحيق المكر السيّئ الا بأهله، فهل ينظرون إلاّ سُنَّة الاولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنّة الله تحويلا».

(فاطر: ٤٢ ــ ٤٣)

هذه الحقيقة يعبر القرآن عنها بأساليب مختلفة فيقول:

«ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

(الانفال: ٥٤)

و يقول في آية اخرى:

«ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

(الرعد: ١١)

و يربط القرآن بين خط الانحراف وضنك العيش فيقول:

«ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً».

(طه: ١٢٤)

وحول ما يحيط الانسان من مصائب يقول سبحانه:

«وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفوا عن كثير».

(الشورى: ٣٠)

فالمصائب ليست لها عوامل غيبية مجهولة، ولا وليدة الصدفة، بل هي نتيجة عمل الانسان. ولا يربط الاسلام شقاء الانسان[1] بعمله حسب، بل ان سعادته أيضا رهينة بأعماله.

يربط القرآن بين التقوى والرخاء الاقتصادي فيقول:

«ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون».

(الاعراف: ٩٦)

هذا المفهوم تعبر عنه النصوص الاسلامية بأساليب مختلفة:

يقول سبحانه:

«ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب».

(الطلاق: ٢)

و يقول: ايضا:

«لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد».

(ابراهيم: ٧).

وعن أمير المؤمنين علي (ع):

«اذا وصلت اليكم اطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر».[2]

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) قال:

---

١ ــ ارتباط شقاء الانسان ومصائبه بأعماله سنة كونية لا تتنافى مع سنة أخرى يقررها الاسلام هي ان الحسنات والتوبة والصدقة تمحو ما ينتظر الانسان من عواقب وخيمة، ذلك لأن الاحسان والتصدق والتوبة من مظاهر تغيير النفس، وتغيير النفس يستتبع ــ حسب السنة الكونية ــ تغييراً في واقع الانسان. وسنفصل ذلك في بحث قادم ان شاء الله.

٢ ــ نهج البلاغة، شرح الفيض، ص ١٠٨٣.

«ما أنعم الله على عبد نعمة فسلبها اياه حتى يذنب ذنبا يستحق بذلك السلب».[1]

وقال ايضا:

«ان الله قضى قضاء حتما ألاّ ينعم على العبد بنعمة فيسلبها اياه حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمة». [2]

هكذا يخرج الذنب عن اطار العمل الفردي ليمتد الى الصعيد الاجتماعي، وتلك سنة كونية الٓهية لا تقبل التغيير.

و يذكر القرآن قصص أفراد وأقوام يشير من خلالها الى هذه السُّنَّةِ .. سُنَّةِ ارتباط الذنب بزوال النعمة، والتقوى بوفور النعمة. نستعرض منها قصتين: قصة يوسف على تقوى الفرد. وقصة قوم سبأ على صعيد ذنب الجماعة.

يوسف بطل التقوى

قصة يوسف الصديق تنطوي على اعظم العبر والعظات، وقد استعرضنا جانبا منها فيما يتعلق بصبر يعقوب والد يوسف. وهنا نلقي الضوء على النتيجة التي ترتبت على تقوى هذا الصديق.

شاء الله ان يؤخذ يوسف الى مصر، فيباع هناك **«بثمن بخس دراهم معدودة»**، وكان المشتري «عزيز مصر» فقال لامرأته: **«أ كرمي مثواه عسى أن ينفعنا اونتخذه ولدا»**، وهكذا دخل يوسف البلاط، وفيه امرأة عزيز مصر التي لا تفكر الا في لذاتها وأهوائها، وليس لها مطمح سوى الاستزادة من اشباع شهواتها.

مجيء يوسف الشاب الجميل الى هذا القصر، دفع بهذه المرأة لان تفكر في استثمار يوسف على طريق شهواتها الجامحة. فما الذي يستطيع ان يمنع مثل هذه المرأة من الاستسلام لنداء الشهوات الجامحة، فالايمان وحده هو القادر على ضبط الشهوات.. وما في قلب «زليخا» ايمان. لذلك أعدت كل السبل لإ يقاع يوسف في شراكها. وكما قال القرآن الكريم:

١ــ الكافي، ج ٣، ص: ٣٧٦.
٢ــ الكافي، ج ٣، ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦.

«وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك ».

(يوسف: ٢٣)

في هذه اللحظات مرّ يوسف بامتحان عسير. فهو الشاب الذي فيه ما في الشباب من شهوة عارمة. وامامه زليخا بكل ما فيها من مفاتن طبيعية واصطناعية. وهو في داخل غرفة مغلقة الابواب، بعيدة عن الانظار، وكل ما حوله من رياش وزخرف وستائر يدغدغ الشهوة و يثيرها.

وهناك الى جانب كل هذا، الطلب الشديد الملح من زليخا.

امام هذه العوامل الدافعة نحو الانزلاق الى حضيض الشهوة، صمد يوسف وقاوم.. امام الشهوة، وامام تهديدات هذه المرأة الطاغية. وفرَّ الى الله من وساوس الشيطان، وانتصر، وأثبت جدارته في اللحظات الحاسمة.

ماذا كانت النتيجة؟

مرت الاعوام والسنين، واذا بالحقيقة تنكشف لعزيز مصر، و يعرف مكانة يوسف وصدقه وامانته.. فيستدعيه بلهفة قائلا **«ائتوني به استخلصه لنفسي، فلما كلمه قال: انك اليوم لدينا مكين أمين»**.

بعد ان كسب يوسف ثقة هذا الملك ، اراد ان يتولى المسؤولية التي تليق بقدرته ويهدفه في خدمة الناس **«قال: اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم»**.

وهكذا مكن الله **«ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء»**.

و بعد ان التقى يوسف باخوته، وتعجب الاخوة مما بلغه اخوهم من منزلة، بين لهم بعبارة موجزة كل ماجرى في ذلك اليوم في قصر عزيز مصر وقال:

«.. انه من يتق الله و يصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين».

(يوسف: ٩٠)

فلو كان يوسف قد انزلق في مستنقع الشهوة، لما بلغ هذا المكان الرفيع، ولما كسب ثقة الملك . فالتقوى هي التي رفعته.. ولحظات من الصبر والصمود هي التي جعلته الصديق الصالح الذي يشع بالخير على اهله ومجتمعه.[1]

---

١ ــ روي عن الامام الرضا(ع) قوله: وأقبل يوسف (بعد توليه وزارة الاقتصاد والمالية بتعبيرنا اليوم) على جمع الطعام، فجمعه في السنين المخصبة فكبسه في الخزائن فلما مضت تلك السنون وأقبلت المجدبة أقبل يوسف على بيع الطعام، فباعهم في السنة الاولى بالدراهم والدنانير، وفي السنة الثانية بالحلي والجواهر،

طغيان قوم سبأ

القرآن الكريم في حديثه عن الامم الماضية يربط بين زوال نعم هذه الامم وما اقترفته من ذنوب ومعاص.

يقول سبحانه:

«اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الارض فأخذهم الله بذنوبهم».

(المؤمن: ٢١)

وقال سبحانه عن هذه السنّة الكونية.

«كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم».

(الانفال: ٥٢)

وبشأن قوم سبأ قال سبحانه:

«لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور».

(سبأ: ١٥ ــ ١٧)

قصة قوم سبأ

اليمن في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية كان دوما مطمح الانظار، تنازعت عليه الدول، وكان زمنا تحت سيطرة ملوك ايران الساسانيين، كل ذلك لمكانته المهمة، ولنعمه الوافرة حتى سمي باليمن السعيد.

ونالت اليمن استقلالها في بعض العصور، من ذلك خلال عصر ملوك

وفي السنة الثالثة بالدوابّ والمواشي، وفي السنة الرابعة بالعبيد والإماء، وفي السنة الخامسة بالدور والعقار، وفي السنة السادسة بالمزارع والانهار، وفي السنة السابعة برقابهم، فملك أحرارهم وعبيدهم وأموالهم.. «ثم اعتق بعد ذلك الرقاب، وأعاد الأموال. وروي أن زليخا حين رأت يوسف في عز سلطانه وعظمته لم تملك إلّا أن تقول: «الحمدلله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيدا، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكا». (مجمع البيان، الطبرسي، ج٣، ص٢٤٤).

سبأ[1]، فقد ذكر أنهم أقاموا دولتهم خلال القرن التاسع قبل الميلاد، واستمرت ٦٠٠ عام. وتشير الحفريات في تلك المنطقة إلى أنَّ هذه الدولة بلغت شأواً كبيراً من التمدن ومن التقدم الفنّي والهندسي.

من أهم اعمال ملوك سبأ بناء سد مأرب. ومأرب عاصمة اليمن آنذاك ، وتقع في واد محاط بجبال مرتفعة.

كان لهذا السد العظيم الاثر الكبير في احياء الاراضي وفي تبديل المدن المجاورة له الى جنان مزدهرة بالاشجار المثمرة، وقيل في وصف تلك المزارع الكثير.

كان على اهل تلك الارض الموفورة النعم ان يشكروا الله على ما رزقهم، لكنهم طغوا وغرقوا في شهواتهم وابطرتهم النعمة، ووقفوا في وجوه الانبياء، وعارضوهم، فاستحقوا العذاب. فارسل عليهم سيل «العرم» فهدم السد واباد الزرع، وجرف كل شيء، وحول المدن الى اراض مقفرة.

يقول الامام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) في الذنوب التي تغير النعم:

«الذنوب التي تغير النعم: البغي على الناس، والزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف، وكفران النعم، وترك الشكر».[2]

عودة الى الاثر الاجتماعي والاقتصادي للذنوب

القرآن الكريم ركز كثيرا على سُنّة كونية يرتبط بها بقاء الامة وانتعاشها بما تكسب ايديها من براو فجور.

يقول سبحانه:

«ألم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قوما آخرين».

(الانعام: ٦)

---

١ ــ هذا تلخيص ما ورد في مجمع البيان للطبرسي، وسيرة ابن هشام، وبحار الانوار للمجلسي، وقصص القرآن للبلاغي.

٢ ــ معاني الاخبار، ص ٢٧٠.

وقال سبحانه:

«ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا، كذلك نجزي القوم المجرمين».

(يونس: ١٣)

وقال ايضا:

«كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم، فأهلكناهم بذنوبهم».

(الانفال: ٥٤)

وقال بشأن قوم ثمود:

«فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها».

(الشمس: ١٤)

و يذكرالقرآن أحياناً هذه السُّنَّة الكونيَّة بشكل قاعدة عامة دون أن يربطها بقوم من الأقوام، كفوله تعالى:

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً».

(الإسراء : ١٦)

وهذا يعني ان هلاك الأمم لايتم الا بعد انتشار الفسق والفجور على ايدي اللاهين العابثين المترفين في المجتمع.

الظلم اهم عوامل فناء الأمم

الظلم من الذنوب التي تؤدي الى ابادة الشعوب وفنائها، والله سبحانه يخاطب نبيه نوحا بشأن قومه فيقول:

«ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون».

(هود: ٣٧)

و بشأن قوم عاد يقول:

«فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين».

(المؤمنون: ٤١)

وعن قوم ثمود يقول سبحانه:

«فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون».

(النمل: ٥٢)

وعن قوم لوط:

«ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين».

(العنكبوت: ٣١)

وعن قوم شعيب:

«واخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين»

(هود: ٩٤)

وعن قوم فرعون:

«فاخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين».

(القصص: ٥٠)

وعن اصحاب السبت قال سبحانه:

«فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس».

(الاعراف: ١٦٥)

ويعبر القرآن في مواضع أخرى عن ارتباط الظلم بفناء جميع الامم والشعوب فيقول:

«ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا».

(يونس: ١٣)

و يقول:

«وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا».

(الكهف: ٥٩)

في التاريخ عبرة

لو القينا نظرة على تاريخ الامم لوجدنا ان الذنوب هي العامل الاساس في انحطاطها وفنائها، وهذا ما عبرعنه اميرالمؤمنين علي (ع) اذ قال «وأيم الله

ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم الا بذنوب اجترحوها لان الله ليس بظلام للعبيد».[1]

وكل ما مرّ على الامم يشكل دروساً علينا ان نتعظ بها، ولذلك يقول (ع): **«العاقل من اتعظ بغيره».**[2]

وفي تاريخ المسلمين بالذات آلاف العبر، وآلاف الصور والمشاهد التي ترسم بوضوح كيف نخرت الذنوب بكيان الامة وأسقطتها من قمة السمو والرفعة الى هاوية التشتت والضياع.

وما نقله المؤرخون لنا عن تاريخ الحكم الاسلامي الذي كان مزدهرا في الاندلس يدمي قلب كل انسان مسلم غيور. فهذه البقعة الحساسة المهمة من العالم كان بامكانها ان تشع بنور الاسلام على كل القارة الاوروبية لولا انغماس الشباب المسلم هناك في الملذات و الموبقات، وانهماكهم في معاقرة النساء والخمور، وسقوطهم في الفخ الذي نصبه لهم أعداؤهم عن طريق الجنس بالذات.[3]

وتاريخ اوروبا الحديث مفعم بهذه العبر، ولايشك باحث في اثر الخمور في سقوط فرنسا عام ١٩٤٠م.

والاحصائيات التي يقدمها الغرب عن الجرائم والمآسي الناتجة عن ارتكاب الموبقات يقشعر لها الجسم، وتنبئ عن تحول الانسان (المتمدن كما يسمونه) الى وحش كاسر مجهز بأحدث الوسائل لارتكاب أبشع الجرائم!!

والشرق الاسلامي ابتلي ايضا بما ابتلي به الغرب وان لم تتوفر فيه الاحصائيات.

فالزنا والقمار والميسر والخمور والمخدرات على انواعها راجت في عالمنا الاسلامي لتسفر عن انواع من المآسي ابتداءً بالوان الاجرام كالقتل والسرقات وتفسخ العوائل وانهيارها.. وانتهاءً بضياع الشخصية الاسلامية للفرد المسلم والامة المسلمة، حتى اصبحت أمتنا ــ ويالالاسف ــ سلعة يساوم عليها سماسرة السياسة

---

١ ــ نهج البلاغة، شرح الفيض، ص ٥٧٠.

٢ ــ غرر الحكم، ص ٤٦.

٣ ــ راجع في هذا الصدد: حضارة الاسلام والعرب، غوستاف لوبون.

العالمية!!

مأساة الموبقات في العالم الاسلامي هي التي جرتنا الى هذه التبعية المقيتة في الحقلين السياسي والاقتصادي، وهي التي جعلت مقدرات المسلمين في قبضة الكفر العالمي.

ان الشراك التي نصبها اعداء المسلمين لأبناء المسلمين في الاندلس نصبوها ايضا في فلسطين فأسفرت عن افظع مأساة في تاريخ المسلمين المعاصر.. مأساة ضياع فلسطين، ووقوعها بأيدي أعداء المسلمين التقليديين.

وهذه الشراك تنصب اليوم بدقة لرؤوس تجعل بعد اصطيادها على دست الحكم والادارة، وتسلم اليها شكلياً مقاليد أمور المسلمين ومن وراء هؤلاء الغارقين في الرذيلة يتلاعب المتلاعبون بشرف المسلمين وكرامتهم وثروتهم.

ملخص القسم الرابع

١ ــ العامل الاساس في التغيير الاجتماعي من وجهة نظر الاسلام هو «الانسان».

٢ ــ ارتباط عمل الانسان بالوضع الاجتماعي والاقتصادي سُنَّة كونية يقررها القرآن و يعبر عنها بأشكال متعددة.

٣ ــ للذنب أثر في زوال النعمة، وللتقوى اثر في وفورها.

٤ ــ الظلم من عوامل انهيار المجتمعات وفنائها.

٥ ــ في التاريخ القديم والمعاصر عبر تؤكد سنة الله في الكون، أي تؤكد اثر الذنوب في ابادة الامم والشعوب.

القسم الخامس

الذنب ينقص العمر

سرُّ الموت والحياة

الموت مصير حتمي مقدر على جميع أبناء البشر، ولا مفر منه: **«كل نفس ذائقة الموت»**[1] وهذا المصير الحتمي الذي يواجهنا ذو طبيعة مليئة بالأسرار والغموض، ولم يستطع العلم حتى اليوم ان يفهم ماهية الحياة والموت.

فالله سبحانه نسب الموت والحياة اليه في مواضع عديدة من القرآن الكريم:

«الذي خلق الموت والحياة...» (الملك : ٢.).

«هو الذي يحيي ويميت....» (غافر:٦٨).

وهذا خليل الرحمن يقول عن الله سبحانه امام نمرود الطاغية: **«ربي الذي يحيي ويميت...»** (البقرة: ٢٨٥).

أما العلم فانه لايستطيع اليوم أن يفرق بدقة بين الخلية الحية والخلية الميتة نعم... الخلية الحية تؤدي نشاطاتها الحيوية والخلية الميتة لا تؤدي هذه النشاطات، لكن هذا الفرق ظاهري لايعرف سببه. فالخليتان متساويتان من حيث المواد الداخلة في تركيبهما، (تحتويان على نفس النسبة من الكالسيوم والحديد والماء) لكن الخلية الحية تؤدي نشاطات هائلة تعجز عنها الخلية الميتة، وهذه الحية ما ان

---

١ ــ آل عمران: ١٨٥ الانبياء: ٣٥ ، العنكبوت: ٥٧.

تموت حتى تتوقف فيها هذه النشاطات الحيوية المكثفة دون أن ينقص من تركيبها شيء.

على هامش مؤتمر علمي عقد في هذا الاطار كتبت صحيفة اطلاعات الايرانية في عددها (١٠١٦٠) مايلي:

«بعد ألف عام سيكتشف الانسان لغز الحياة ولكن هذا لايعني انه سيستطيع ان يصنع ذبابة او حشرة او حتى خلية حية. هذا الموضوع اكده العلماء في مؤتمر عقد تحت اسم داروين. وفي نهاية هذا المؤتمر اعلن البروفسور الامريكي «هانز» ان العلماء سيكثفون جهودهم خلال الاعوام الالف القادمة حول دراسة سرالحياة».

من هنا نفهم ان مسألة الموت والحياة خارجة عن سيطرة الانسان، ولابد للكائن البشري يوما ان يموت، وكل ما استطاعه العلم هو ابعاد بعض عوامل الموت عن الانسان مثل اكتشاف جراثيم الامراض المختلفة، واكتشاف الامصال الواقية والمضادة وتطور الطبابة والعمليات الجراحية والقضاء على الأوبئة وأمثالها.

كما ان هناك محاولات جادة لازالة الشيخوخة المبكرة في الافراد واطالة عمر الانسان ما أمكن.

ومن المؤسف ان كل الدراسات الرامية لاطالة عمر الانسان تدور حول الوقاية من الامراض ومعالجتها، وقد تتناول الامراض العصبية والنفسية، لكنها لا تتطرق اطلاقا الى ارتباط سلوك الانسان بطول عمره، والى تأثير الذنوب على نقص عمر الكائن البشري. وهذا يعود الى ان الاعمال العلمية اليوم حددت نفسها بأنابيب الاختبار وبالتفسيرات المادية للعلل والاسباب، وأهملت مالم يدخل في اطار الحس والتجربة من هذه العلل، وفي هذا الاطار الضيق من التفكير تكون العلاقة غير مفهومة بل غيرمعقولة بين الكذب او قطع الرحم ــ مثلا ــ وبين قصر العمر، وهكذا بين الصدق اوصلة الرحم وبين طول العمر.

مثل هذه العلاقة لايمكن ان تدخل اطار التجربة المادية المختبرية، بل هي علاقة غيبية اخبرتنا بها الروايات الدينية المستقاة من الوحي الالهي.

جدير بالذكر ان كثيرا من العلماء يعترفون بضيق نطاق المعرفة الحاصلة عن طريق الحس والتجربة، ويقرون بان العالم الذي يدركونه بالحس والتجربة ضئيل بل ضئيل جدا بالنسبة للعوالم الاخرى المؤثرة في حياة الانسان تأثيرا عظيما،

غير ان ماهيتها لا تخضع للدخول في المختبرات.

«موريس مترلينك» العالم الاوروبي الذي قيل فيه «اننا لو اسميناه سقراط العصر الحديث لقللنا من قيمته ولرفعنا قيمة سقراط» يقول:

«أعيد القول مرة أخرى انني لا أعلم شيئا واكرر ثانية انه لا أحد يعلم شيئا، فلو كان أحد يعلم شيئا لأشاعه بين الناس، ولاطلع الجميع عليه ولفهم الناس اسرار الخلقة، من هنا فان ما نعرفه عن اسرار الخلقة واسرار العالم ونهايته انما هو حصيلة ما خطر في أذهاننا، وعلى اساسه نقيم النظريات بشأن هذه المسائل، ولم تلبث هذه النظريات طويلا حتى يتبين لنا خواؤها. وما قلته انا في هذا الصدد انما هو حصيلة ما توصل اليه فكري ولا أدعي انه صحيح، ولو كان احد في العالم يدعي صحة اقواله بشأن اسرار الخليقة فليقل، لنرى مدى صحة ادعائه»[1]

والعالم البريطاني (آو يبوري) يقول:

«معلوماتنا كقطر دائرة ومجهولاتنا مثل محيطها، وكلما اتسع القطر يتسع المحيط أضعافا. لعل الاجيال القادمة تستطيع ان تتقدم في اعمالها العلمية وتكتشف اسرارا جديدة عن الكائنات، لكنه من المؤسف جدا اننا ينبغي ان نقاوم غرورنا و نعترف باننا لانعلم شيئا عن سر الوجود، فرموز الحياة والموت وفلسفة الخلقة واشياء كثيرة أخرى الغازقد لايكشف عنها العلم في القريب العاجل.

لماذا نبتعد؟ نحن لانعرف انفسنا حتى الآن، ولانعرف ارتباطنا بالطبيعة، لانعرف من أين جئنا والى أين سنذهب بعد الموت. نعم نحن لانعرف شيئا، ومضطرون لوضع علامات استفهام امام جميع هذه الأشياء...» [2]

ويقول العالم الشهير فلاماربون:

«انا أبصر وأفكر، ولكن ماهو الفكر؟ لاأحد يستطيع الجواب، وانا أمشي، فما هي حقيقة هذا العمل العضلي؟ لا أحد يعلم ذلك. ارادتي قوة ولكنها قوة غير مادية، بل ان جميع خصائصي الروحية غير مادية. أنا أرفع يدي متى أردت، فارادتى تحرك الجانب المادي من جسمي، فما هي حقيقة هذه الحادثة؟ وما هي الواسطة بين الارادة اللامادية وحركة الجسم المادية؟

---

١ ــ نقلا عن كتاب «دنياى ديگر» فارسي، ص ٥.

٢ ــ نقلا عن كتاب «درجستجوى خوشبختى» فارسي، ص ٢٢١.

لايوجد أحد يستطيع الجواب على هذه الاسئلة. قولوا لي: كيف تنقل الاعصاب البصرية الصور الخارجية الى الفكر؟ قولوا لي: ما هي حقيقة الفكر؟ كيف يحصل الادراك ؟ واين موضعه؟ وما هي طبيعة عمل المخ؟ أستطيع أن أواصل طرح هذه الاسئلة لعشر سنوات، ولكن لايستطيع أكبر دماغ مفكر أن يجيب على هذه الاسئلة؟»[1]

و يقول العالم الغربي المعروف اوليفر لاج:

«ما نعرفه فعلا ضئيل جدا بالنسبة لما نجهله، بعضهم يردد هذه الجملة عن غير اعتقاد وأنا أقولها عن قطع وايمان».[2]

وهناك اعترافات كثيرة عن نقص علم البشر نكتفي بما نقلناه عن علماء الغرب، ومن علماء الشرق ابوعلي بن سينا الذي ردد عندما حضرته الوفاة:

«نموت وليس لنا حاصل سوى علمنا انه ما عُلم».

ومن الغريب ان نرى امام اعترافات هؤلاء الافذاذ أفرادا من أدعياء العلم وأنصاف العلماء يجرؤون بكل سذاجة وطفولية على انكار كل شيء لايخضع لحواسهم، والتأكيد على خرافة كل شيء لايدخل انابيب الاختبار، ولايخضع لمبضع التشريح!!

روي عن الحكيم بوذرجمهر ان آمرأة جاءته فطرحت عليه سؤالا، فقال: لا أعلم.

قالت المرأة: ان الملك يعطيك كل هذه المبالغ من الاموال شهريا، ثم أنت الآن لا تعلم بجواب سؤالي؟

أجابها بوذرجمهر الحكيم: **«ان الملك انما يعطيني هذا المال على معلوماتي، ولو أراد ان يكافئني على مجهولاتي لما استطاع حتى ولو انفق عليّ كل أموال خزائنه».**[3]

على كل حال، يجمع كبار العلماء على ضآلة علم البشر، وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم اذ قال:

«وما أوتيتم من العلم الا قليلا».(الاسراء: ٨٥).

---

١ ــ «ارتباط انسان وجهان» فارسی، ص ٢٠ ــ ٢٣.

٢ ــ نفس المصدر السابق.

٣ ــ الكشكول، ج ٣، ص ٣١٠.

انـنا نعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أنبياء بعثهم الى الناس ليبينوا لهـم طـريـق سعـادتهـم و يـرشـدوهم الى الخير و يبعدوهم عن المآسي التي تنشأ في المجـتمعات البشرية لاسباب مختلفة. وهذا انما كان بسبب جهل الانسان بتفاصيل وأبـعـاد ما يضره وما ينفعه. ولذلك فالكائن البشري يواجه الوان المصائب والمهالك ان ابـتـعـد عـن هداية الانبياء، كما ينعم بالسعادة الحقيقية ان هو اهتدى بهداهم، والنصوص التالية تؤكد هذه الرابطة: .

يقول سبحانه:

«وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم»(الشورى: ٣٠)

و يقول تعالى:

«ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس»(الروم: ٤١).

وعن أمير المؤمنين علي (ع):

«توقّوا الـذنـوب، فـما مـن بـلـيـة ولانـقـص رزق الاّ بـذنـب حتى الخدش والكبوة والمصيبة»[١].

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع):

«من يموت بالذنوب اكثر ممن يموت بالآجال».[٢]

وفي حديث آخر عنه أيضا:

«أما انه ليس من عِرق يضرب ولانكبة ولاصداع ولامرض الابذنب»[٣]

هـذا بـالـنسبة الى أثر الذنوب، وأما بشأن أثر الاعمال الصالحة في سعادة الانسان، فقد روي عن الامام الصادق (ع):

«من يعيش بالاحسان اكثر ممن يعيش بالاعمار»[٤]

وفي حديث آخر قال:

«يـعـيـش الـناس باحسانهم اكثر مما يعيشون بأعمارهم ويموتون بذنوبهم اكثر مما يموتون بآجالهم».[٥]

---

١ ــ خصال الصدوق، ج٢، ص ٦١٦.

٢ ــ بحار الانوار، ج ٥، ص ١٤٠.

٣ ــ اصول الكافي، ج ٣، ص ٣٧٠.

٤ ــ بحار الانوار، ج ٧٣، ص ٣٥٤.

٥ ــ البحار، ج ٥، ص ١٤٠.

هذه المسألة لها ارتباط بعقيدة البداء،ويظهر من الروايات ان للانسان أجلين أحدهما «حتمي» اذا جاء فوت الانسان قطعي ولا مفر منه، والآخر أجل «غير حتمي» و يسمى «موقوفا» او «معلقا»، و يرفع بالدعاء او بالصدقة، وقدمر بنا قول الامام الباقر(ع) لمحمد بن مسلم:

«ألا أخبرك بما فيه شفاء من كل داء حتى السأم؟ قال: بلى، قال: الدعاء»[1].

بل ان سائر مقدراتنا بهذا الشكل يتغير بعضها بأعمالنا.

حمران أحد أصحاب الامام الباقر(ع) قال: سألت الامام عن قوله تعالى:

«هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده»

(الانعام: ٢).

فقال الباقر(ع):

«هما أجلان أجل محتوم وأجل موقوف».[2]

وثمة روايات أخرى بهذا المضمون وردت في تفسير هذه الآية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام [3].

وفي هذا المجال رويت قصص كثيرة لاتخلو من فائدة ننقل بعضا منها توخيا لزيادة التأثير في القارئ ان شاء الله تعالى.

شاب نجا من الموت

عن الامام محمد بن علي الباقر(ع) قال: **«بينا داود(على نبينا وآله وعليه السلام) جالس وعنده شاب رث الهيئة يكثر الجلوس عنده ويطيل الصمت، اذ أتاه ملك الموت فسلم عليه، وأحدَّ ملك الموت النظر الى الشاب (أي بالغ في النظر اليه)، فقال داود(ع):**

ـ نظرت الى هذا؟!

فقال: نعم اني أُمرت بقبض روحه الى سبعة أيام في هذا الموضع.

---

١ ـ فلاح السائل، ص ٢٨.

٢ ـ اصول الكافي، ج ١، باب البداء.

٣ ـ لمزيد من الاطلاع راجع المجلد ٤ من بحار الانوار ص ٩٢ وما بعدها.

فرحمه داود (رقّ قلبه عليه) فقال:

ياشاب هل لك امرأة؟

قال: لا، وما تزوّجتُ قط.

قال داود: فأت فلانا ــ رجلا كان عظيم القدر في بني اسرائيل ــ فقل له: ان داود يأمرك ان تزوجني ابنتك، وتدخلها الليلة، وخذ من النفقة ما تحتاج اليه وكن عندها، فاذا مضت سبعة ايام فوافني في هذا الموضع.

مضى الشاب برسالة داود(ع) فزوجه الرجل ابنته وأدخلوها عليه، وأقام عندها سبعة أيام، ثم وافى داود يوم الثامن، فقال له داود:

ــ يا شاب كيف رأيت ما كنت فيه؟

ــ قال: ما كنت في نعمة ولا سرور قط أعظم مما كنت فيه. قال داود:

اجلس، فجلس وداود ينتظر أن يقبض روحه. فلما طال قال:

ــ انصرف الى منزلك فكن مع أهلك، فاذا كان يوم الثامن فوافني ههنا.

فمضى الشاب، ثم وافاه يوم الثامن وجلس عنده، ثم انصرف اسبوعا آخر، ثم أتاه وجلس فجاء ملك الموت داود، فقال داود(ع):

ألست حدثتني بأنك أمرت بقبض روح هذا الشاب الى سبعة أيام؟

قال: بلى.

فقال: قد مضت ثمانية وثمانية وثمانية!

قال: يا داود، ان الله تعالى رحمه برحمتك له فأخر في أجله ثلاثين سنة[1].

الانفاق يغير قدر عائلة.

روي عن الامام موسى بن جعفر(ع) انه قال:

«كان في بني اسرائيل رجل صالح، وكانت له امرأة صالحة، فرأى في النوم[1] ان الله تعالى قد وقت لك من العمر كذا وكذا سنة، وجعل نصف عمرك في سعة،

---

١ ــ البحار، ج ٤، ص ١١١ ــ ١١٢.

٢ ــ هكذا وردت القصة في البحار ج١٤ ص ٤٩١ والظاهر ان فيها هنا سقطا في الطباعة حيث الكلام مقطوع. ولو اضيف اليه «أن قد أتاه آت فقال له»: لاستقام الكلام بدلالة ما ورد في الفقرة الرابعة منها حيث جاء: «فلما كان في الليلة الثانية أتى الآتي فقال:» وقد وردت هذه القصة بهذا المضمون ولكن

وجعل النصف الآخر في ضيق، فاختر لنفسك اما النصف الاول واما النصف الاخير.

فقال الرجل: ان لي زوجة صالحة وهي شريكي في المعاش فاشاورها في ذلك وتعود اليّ فأخبرك. فلما أصبح الرجل، قال لزوجته: رأيت في النوم كذا وكذا.

فقالت: يا فلان اختر النصف الاول وتعجّل العافية لعل الله سيرحمنا و يتم لنا النعمة.

فلما كان في الليلة الثانية أتى الآتي فقال:

ما اخترت؟

فقال: اخترت النصف الاول.

فقال: ذلك لك.

فأقبلت الدنيا عليه من كل وجه، ولما ظهرت نعمته، قالت له زوجته:

قرابتك والمحتاجون، فصلهم و برّهم، وجارك وأخوك فلان فهبهم.

فلما مضى نصف العمر، وجاز حدّ الوقت رأى الرجل الذي رآه أولا في النوم، فقال: ان الله تعالى قد شكر لك ذلك، ولك تمام عمرك سعة مثل ما مضى». [1]

* * *

من هذه الروايات يتضح الارتباط بين عمل الانسان وما يلاقيه في حياته من سعادة وشقاء وطول عمر او قصره. ولا يمكن للعلم ان ينكر هذا الارتباط، بل ان انكاره دونما دليل مخالف للروح العلمية.

كثير من الروابط في عالم المادة كانت مجهولة لدى الانسان ثم اكتشفها فيما بعد. لقد كان الانسان يجهل علاقة المد والجزر بالقمر، ويجهل علاقة ذكاء الانسان بتغذيته أيام الطفولة، وآلاف العلاقات الأخرى في عالم المادة، واليوم قد اكتشفها، بل واكتشف أيضا وجود علاقة من نوع آخر بين المادة و بين قوى أخرى غير مادية، وفهم ان القوانين والعلاقات الحاكمة في الكون ليست محدودة بعالم المادة.

بشكل مختلف عن معمر بن خلاد عن الرضا عليه السلام وفيها: فأتاه في منامه من قال له:...(مشكوٰة الانوار للطبرسي ــ الباب الاول ــ الفصل السادس، ص ٣٠) المصحح.

١ ــ البحار، ج ١٤ ، ص ٤٩١.

الكسيس كارل في كتابه «الانسان ذلك المجهول» يفصل الحديث في العلاقات المجهولة غير المادية القائمة بين جسم الانسان وتأثيرات غير مادية كالدعاء. فيتحدث عن آثار الدعاء في شفاء الأمراض الجسمية، و يؤكد على أن مشاهدات العلماء في حقل شفاء الامراض بطريق اعجازي بوسيلة الدعاء كثيرة لاتحصى.

ومن الملفت للنظر قوله:

«ليس من الضروري ان يدعو المريض بنفسه وليس من المهم ان يكون المريض مؤمنا بالدعاء، بل يكفي ان يجلس احد الى جانبه و يبتهل الى الله».

وقوله:

«الدعاء من أجل الآخرين له دائما أثر أقوى»[1]

فقد يخطر في الذهن ان الدعاء له أثر تلقيني وايحائي على المريض، يؤدي الى شفاء مرضه، ولكن قول كارل الاخير ينفي هذا، حين يؤكد ان دعاء الآخرين يؤثر حتى على غير المؤمنين بالدعاء أصلا.

الذنوب التي تنقص العمر

يشرح الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) عوامل قصر العمر فيقول:

«والذنوب التي تعجل الفناء: قطيعة الرحم، واليمين الفاجرة، والاقوال الكاذبة، والزنا، وسدّ طرق المسلمين، وادّعاء الامامة بغير حق».[2]

وفي هذا الحديث يعدد الامام ستة عوامل مؤدية الى تعجيل الهلكة والفناء نتناول هنا بعضها.

قطيعة الرحم تعجل الفناء

قديكون القارئ الكريم قد شاهد في حياته مصاديق لهذه العلاقة، فما أكثر الافراد الذين طال عمرهم في خيرو بركة نتيجة صلة الرحم، وما اكثر من خبَتْ جذوةُ حياتهم في عنفوانها نتيجة قطيعة الرحم... النصوص الدينية أكدت على

---

١ ــ راجع كتابيه: «الدعاء» و «الانسان ذلك المجهول».

٢ ــ معاني الاخبار، ص ٢٧١.

هذه العلاقة، والروايات كثيرة في هذا المجال نذكر طائفة منها.

عن أمير المؤمنين علي (ع):

«ان اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم تذران الديار بلاقع من أهلها»[1]

وروى ابو حمزة الثمالي عن أمير المؤمنين (ع) قوله:

«أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء» .

فقام اليه رجل من الخوارج وقال: يا علي، وهل هناك ذنوب تعجل الفناء؟

قال الامام: **«نعم ويلك، قطيعة الرحم...»**[2].

بين الامام الصادق (ع) والمنصور

بعث ابو جعفر المنصور الى الامام الصادق(ع)، وامر بفرش فطرحت له الى جانبه فاجلسه عليها ثم قال: عليّ بمحمد، عليّ بالمهدي (اسم ولده ولقبه) يقول ذلك مرارا، فقيل له: الساعة الساعة يأتي يا أمير المؤمنين، فما لبث ان وافى، فاقبل المنصور على الامام الصادق (ع) فقال: يا أبا عبدالله حديث حدّثه في صلة الرحم. اذكره يسمعه المهدي. قال الصادق (ع):

«نعم، حدثني ابي عن أبيه عن جدّه عن علي(ع) قال: قال رسول الله (ص) ان الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله عزوجل ثلاثين سنة ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيِّرها الله ثلاث سنين. ثم قال(ع): يمحوالله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب».

قال المنصور: هذا حسن يا أبا عبدالله، وليس اياه أردت.

قال ابو عبدالله (ع):

«نعم، حدثني أبي عن جده عن علي(ع) قال: قال رسول الله(ص): صلة الرحم تعمر الديار وتزيد في الاعمار وان كان أهلها غير أخيار».

قال المنصور: هذا حسن يا أبا عبدالله، وليس اياه أردت.

فقال أبو عبدالله (ع):

---

١ ــ دار السلام، ج ٣ ، ص ١٩٣.

٢ ــ اصول الكافي، ج ٤ ص ٤٨.

«نعم، حدثني أبي عن أبيه عن جدّه عن علي(ع) قال: قال رسول الله(ص): صلة الرحم تهون الحساب وتقي ميتة السوء».

قال المنصور: نعم هذا أردت[1].

قطع الرحم بعد الشرك بالله!

جاء رجل رسول الله (ص) فقال: ماأبغضُ الاعمال الى الله؟

قال: الشرك بالله.

قال: ثم ماذا؟

قال: قطيعة الرحم.

قال: ثم ماذا؟

قال: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.[2]

قصة من الكافي

روى احد أصحاب الامام الصادق(ع) انه قال للامام:

ــ ان اخوتي و بني عمّي قد ضيقوا علي الدار، وألجؤوني منها الى بيت، ولو تكلمتُ أخذت ما في أيديهم.

قال الامام: اصبر فان الله سيجعل لك فرجا.

قال: فانصرفت، ووقع الوباء في سنة احدى وثلاثين ومئة، فماتوا والله كلهم، فما بقي منهم أحد. قال: فخرجت فلما دخلت عليه قال (الامام):

ــ ما حال أهل بيتك؟

قال: قلت له: قد ماتوا والله كلهم، فما بقي منهم أحد.

فقال: هو بما صنعوا بك وبعقوقهم اياك وقطع رحمهم بتروا، أتحب أنهم بقوا وأنهم ضيقوا عليك؟

قال: قلت اي والله[3].

١ــ سفينة البحار، ج ١، ص ٥١٤.

٢ ــ سفينة البحار، ج١، ص ٥١٦.

٣ ــ الكافي، ج ٤، المترجم، ص ٤٧.

ثلاثة أحاديث في صلة الرحم

عن الامام الباقر(ع) قال:

«صلة الارحام تزكي الاعمال وتنمي الاموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب وتنسئ في الأجل»[1].

وروي عن رسول الله(ص) انه قال:

«اوصي الشاهد من امتي والغائب ومن في أصلاب الرجال وارحام النساء الى يوم القيامة ان يصل الرحم وان كانت منه على مسيرة سنة، فان ذلك من الدين»[2].

وعن الامام الصادق(ع) قال:

«ما نعلم شيئا يزيد في العمر الاصلة الرحم، حتى ان الرجل يكون اجله ثلاث سنين فيكون وصولا للرحم فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة فيجعلها ثلاثا وثلاثين سنة. ويكون اجله ثلاثا وثلاثين سنة فيكون قاطعا للرحم فينقصه الله ثلاثين سنة ويجعل اجله الى ثلاث سنين»[3].

الكذب ينقص العمر

الكذب من الاخطار التي تهدد المجتمع البشري على الصعيدين الفردي والاجتماعي. يقول أمير المؤمنين علي ــ عليه السلام ــ:

«الا فاصدقوا فان الله مع الصادقين، وجانبوا الكذب فان الكذب مجانب الايمان، الا وان الصادق على شفا منجاة وكرامة، الا وان الكاذب على شفا مخزاة وهلكة»[4].

وقال في حديث آخر:

«الصدق ينجي والكذب يردي»[5].

والاحاديث تؤكد بشكل خاص على الاثر المدمر للكذب المقرون باليمين.

---

١ ــ اصول الكافي، ج ٣، ص ٢٢١ ــ ٢٢٤.
٢ ــ اصول الكافي، ج ٣ ، ص ٢٢١ ــ ٢٢٤.
٣ ــ اصول الكافي، ج ٣، ص ٢٢١ ــ ٢٢٤.
٤ ــ علل الشرائع، ج ١ ص ٢٣٥.
٥ ــ غرر الحكم، ص ١٢.

قال رسول الله (ص):

«من حلف على يمين وهو يعلم انه كاذب فقد بارز الله بالمحاربة، وان اليمين الكاذبة تذر الديار بلاقع من اهلها وتورث الفقر في العقب»[1].

عاقبة كذب الزبيري

يحيى بن عبدالله بن الحسن ــ من احفاد الحسن المجتبى عليه السلام ــ ومن المقربين للامام الصادق(ع)، وروى عنه احاديث كثيرة. حين ثار الحسين بن علي ــ شهيد فخ ــ في عصر الهادي العباسي نهض لمناصرته، وبعد شهادته توارى عن الانظار، وبقي متنقلا في المدن متنكرا. ووصل الى الديلم في عهد الرشيد، فالتف حوله الناس، وازدادت شوكته.

بلغ الرشيد خبر يحيى، فاستاء، وأمر الفضل بن يحيى البرمكي وهو آنذاك على نواحي خراسان ان يستميل يحيى بكل ما استطاع وينهي الغائلة.

استطاع الفضل ان يفعل ذلك، وانتهى الامر بالصلح، وامضاء وثيقة امان، فارسل الفضل يحيى واتباعه الى بغداد، فرحب به الرشيد واكرم وفادته، ولكنه كان يتربص به ليوقعه في السجن بتهمة التآمر ضد النظام الحاكم.

وفي مرة جاء عبدالله بن مصعب الزبيري[2] الى الرشيد واخبره ان يحيى بن عبدالله طلب منه البيعة. فامر الرشيد ان يجمع بين يحيى وابن الزبير، وفي هذا الاجتماع دارت احاديث طريفة ننقلها للقارئ، لكننا نستهدف بيان نهاية هذه الجلسة وكيف ادت الى هلاك الزبيري بسبب قسمه كذبا.

يقول ابو الفرج:

«ثم دعا (الرشيد) وجمع بينه (يحيى) وبين عبدالله بن مصعب الزبيري ليناظره فيما رفع اليه، فجبهه ابن مصعب بحضرة الرشيد وقال له: نعم يا امير المؤمنين ان هذا دعاني الى بيعته.

قال له يحيى: اتصدق هذا وتستنصحه؟ وهو ابن عبدالله بن الزبير الذي ادخل اباك وولده الشعب واضرم عليهم النار حتى خلّصه ابوعبدالله الجدلي

---

١ ــ سفينة البحار، ج١، ص ٢٩٧.

٢ ــ يذكر ابن النديم انه عبدالله والد مصعب.

صاحب علي بن ابي طالب منه عنوة. وهوالذي بقي اربعين جمعة لايصلي على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ في خطبته حتى التاث عليه الناس. فقال: ان له اهل بيت سوء اذا صليت عليه او ذكرته اتلعوا اعناقهم واشرأبوا لذكره وفرحوا بذلك فلا احب ان اقر عينهم بذكره... ووالله ان عداوة هذا يا امير المؤمنين لناجميعاً بمنزلة سواء، لكنه قوي علي بك وضعفت عنه، فتقرب بي اليك، ليظفر منك بما يريد، اذ لم يقدر على مثله منك، وما ينبغي لك ان تسوغه ذلك فيَّ، فان معاوية بن ابي سفيان وهو ابعد نسبا منك الينا ذكر يوما الحسن بن علي فسفهه، فساعده عبدالله بن الزبير على ذلك، فزجره معاوية وانتهره. فقال: انما ساعدتك يا امير المؤمنين! فقال: ان الحسن لحمي آكله ولا أوكله.

فقال عبدالله بن مصعب: ان عبدالله بن الزبير طلب امرا فادركه، وان الحسن باع الخلافة من معاوية بالدراهم، اتقول هذا في عبدالله بن الزبير وهو ابن صفية بنت عبدالمطلب؟

فقال يحيى: يا امير المؤمنين، ما انصفنا ان يفخر علينا بامرأة من نسائنا وامرأة منا، فهلا فخر بهذا على قومه من النوبيات والاساميات والحمديات!

فقال عبدالله بن مصعب: ما تدعون بغيكم علينا وتوثبكم في سلطاننا؟

فرفع يحيى راسه اليه، ولم يكن يكلمه قبل ذلك، وانما كان يخاطب الرشيد بجوابه لكلام عبدالله، فقال له اتوثبنا في سلطانكم؟ ومن انتم ـ اصلحك الله ـ عرّفني فلست اعرفكم؟ فرفع الرشيد راسه الى السقف يجيله فيه ليستر ما عراه من الضحك، ثم غلب عليه الضحك ساعة، وخجل ابن مصعب.

ثم التفت يحيى فقال: يا امير المؤمنين، ومع هذا فهو الخارج مع اخي على ابيك والقائل له، (وذكر ابياتا منها):

انا لنامل ان ترتد أُلفَتنا ... بعد التدابر والبغضاء والاحن
حتى يثاب على الاحسان محسننا ... و يأمن الخائف الماخوذ بالدمن
وتنقضي دولةٌ احكامُ قادتها ... فينا كاحكام قوم عابدي وثن
فطالما قد بروا بالجور اعظمنا ... بري الصناع قداح النبع بالسفن
قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا ... ان الخلاقة فيكم يا بني الحسن..

قال: فتغير وجه الرشيد عند استماع هذا الشعر، فابتدأ ابن مصعب يحلف

بالله الذي لا آله الاهو، وبايمان البيعة ان هذا الشعر ليس له وانه لسديف.

فقال يحيى: والله يا امير المؤمنين ما قاله غيره، وما حلفت كاذبا ولا صادقا بالله قبل هذا، وان الله اذا مجده العبد في يمينه بقوله: الرحمن الرحيم، الطالب الغالب استحيى ان يعاقبه، فدعني احلفه بيمين ما حلف بها احد قط كاذبا الا عوجل. قال: حلفه، قال:

قل: برئت من حول الله وقوته، واعتصمت بحولي وقوتي، وتقلدت الحول والقوة من دون الله، استكبارا على الله، واستغناء عنه، واستعلاء عليه ان كنت قلت هذا الشعر.

فامتنع عبدالله من الحلف بذلك، فغضب الرشيد وقال للفضل بن الربيع: يا عباسي ماله لايحلف ان كان صادقا؟ هذا طيلساني عليّ، وهذه ثيابي، لوحلفني انها لي لحلفت. فرفس الفضل بن الربيع عبدالله بن مصعب برجله وصاح به: احلف ويحك ــ وكان له فيه هوى ــ فحلف باليمين ووجهه متغير وهو يرتعد، فضرب يحيى بين كتفيه ثم قال: يا ابن مصعب قطعت والله عمرك، والله لا تفلح بعدها. فما برح من موضعه حتى اصابه الجذام فتقطع ومات في اليوم الثالث.

فحضر الفضل بن الربيع جنازته، ومشى الناس معه، فلما جاءوا به الى القبر ووضعوه في لحده، وجعل اللبن فوقه، انخسف القبر فهوى به حتى غاب عن اعين الناس، فلم يروا قرار القبر، وخرجت منه غبرة عظيمة، فصاح الفضل: التراب التراب، فجعل يطرح التراب وهو يهوي، ودعا بأحمال الشوك فطرحها فهوت، فامر حينئذ بالقبر فسقف بخشب واصلحه وانصرف منكسرا. فكان الرشيد بعد ذلك يقول للفضل: أرأيت يا عباسي؟ ما اسرع ما اديل ليحيى من ابن مصعب.[١]

* * *

قال الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام):

«ثلاث خصال لايموت صاحبهن ابدا حتى يرى وبالهن: البغي وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها، وان أعجل الطاعة ثوابا لَصلةُ الرحم، وان القوم

---

١ ــ مقاتل الطالبيين، في اخبار يحيى بن عبدالله بن الحسن.

ليكونون فجارا فيتواصلون فتنمى اموالهم و يثرون، وان اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم ليذران الديار بلاقع من اهلها»[1].

الزنا ينقص العمر

احد آثار الزنا الهدّامة قصر العمر، وهذا ما اكد عليه ألماثور عن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ حيث قال:

«يا معشر المسلمين. اياكم والزنا فان فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فاما التي في الدنيا فانه يذهب بالبهاء و يورث الفقر و ينقص العمر، واما التي في الآخرة، فانه يوجب سخط الرب وسوء الحساب والخلود في النار»..[2]

وفي حديث آخر قال:

«اياكم والزنا فان فيه عشر خصال: نقصان العقل، والدين، والرزق، والعمر، وآفة الهجران، وغضب الرحمن، وهجوم النسيان، و بغض اهل الايمان، وذهاب ماء الوجه، وردّ الدعاء، والعبادة»[3].

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم):

«الزنا يورث الفقر و يدع الديار بلاقع من اهلها»[4].

وقال رسول الله(ص):

«اذا ظهر الزنا من بعدي يكثر موت الفجاءة»[5].

وفي حديث آخر قال:

«خمس اذا أدركتموهن فتعوذوا بالله منهن:

ــ لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوها الا ظهر فيهم الطاعون، والاوجاع التي لم تكن في اسلافهم الذين مضوا.

ــ ولم ينقصوا المكيال والميزان الاّ اخذوا بالسنين وشدّة المؤونة وجور السلطان.

---

١ ــ تحف العقول، ص ٢٩٤.

٢ ــ خصال الصدوق، ج١، ص ٣٢٠.

٣ ــ لآلئ الاخبار، ج٥، ص ١٩٧.

٤ ــ الوسائل، ج٣، ص ٩٣.

٥ ــ اصول الكافي، ج٤، ص ٨١.

ـ ولم يمنعوا الزكاة الا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.
ـ ولم ينقضوا عهدالله وعهد رسوله الاّ سلط الله عليهم عدوّهم واخذوا بعضَ ما في ايديهم.
ـ ولم يحكموا بغير ما انزل الله الاّ جعل الله عزوجل بأسهم بينهم»[1].

عقوق الوالدين يقصر العمر

عن الامام جعفر بن محمد الصادق(ع) انه قال:

«نعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء وتقرب الآجال وتخلي الديار، وهي قطيعة الرحم والعقوق وتركُ البر»[2].

وفي حديث آخر عن رسول الله(ص) انه قال:

«ثلاثة من الذنوب تُعجّل عقوبتها ولا تؤخّر الى الآخرة: عقوق الوالدين والبغي على الناس، وكفر الاحسان»[3].

وهكذا البرّ بالوالدين يطيل العمر.

قال الامام الباقر ـ عليه السلام ـ:

«البر وصدقة السر ينفيان الفقر و يزيدان في العمر و يدفعان عن سبعين ميتة سوء»[4].

وفي حديث آخر عنه ايضا قال:

«صدقة السر تطفي غضب الرب، وبر الوالدين وصلة الرحم يزيدان في الاجل»[5].

عمر (ميسّر) ازداد

روى حنان بن سدير (من اصحاب الامام الصادق) قال: كنا عند ابي عبدالله(ع) وفينا شخص (اسمه) ميسّر فذكر واصلة القرابة، فقال ابو عبدالله(ع): «يا ميسّر قد حضر اجلك غير مرة ولا مرتين، كل ذلك يؤخر الله اجلك،

---

١ ـ اصول الكافي، ج ٤، ص ٨١.
٢ ـ اصول الكافي، ج ٤، ص ١٨٤.
٣ ـ امالي الشيخ الطوسي، ج٢ ، ص١٣.
٤ ـ بحار الانوار، ج٧٤، ص ٨١.
٥ ـ نفس المصدر، ص ٨٢.

لصلتك قرابتك، وان كنت تريد ان يزاد في عمرك فبرّ شيخيك» يعني ابو يه[1].

وروى في موضع آخر عن ميسر نفسه قال: «قال لي (الامام) يا ميسر اني **لاظنك وصولا لقرابتك،** قلت: نعم جعلت فداك ، لقد كنت في السوق وانا غلام واجرتي درهمان وكنت اعطي واحدا عمتي، وواحدا خالتي، فقال: اما والله لقد حضر اجلك مرتين، كل ذلك يؤخر»[2].

ملخص القسم الخامس

١ ـــ كل نفس ذائقة الموت، ولا مفر من الاجل، لكن بعض اعمالنا ذات تاثير على اطالة اعمارنا او قصرها، وقادرة على تأخير اجلنا.

٢ ـــ تذكر الروايات ان للانسان اجلين: احدهما حتمي، والآخر معلق غير حتمي. الاجل الحتمي لايتغير، اما المعلق فيقبل التغيير بالصدقة والدعاء وصلة الرحم وامثال هذه الاعمال.

٣ ـــ العلاقة بين الكذب وقصر العمر لاتخالف العلم، فعالمنا مليء بالعلاقات بين القوى المادية والمعنوية، والعلم كشف عن جانب من هذه العلاقات ولازال الجانب الاكبر منها مجهولا.

٤ ـــ العلماء يقرون اليوم تأثير الدعاء في شفاء الامراض.

* * *

١ ـــ بحار الانوار، ج٧٤، ص ٨٤.

٢ ـــ بحار الانوار، ج٧٤ ، ص١٠٠.

القسم السادس

الذنوب تهتك العصم

عصم الانسان

احد اخطار الذنوب على المجتمع البشري هتك الحجب التي تستر الروح البهيمية في الكائن البشري، وقدجاء التعبير عن هذه الحجب الساترة في الاحاديث بصور مختلفة.

عن الصادق ــ عليه السلام ــ :

«ان لله تبارك وتعالى على عبده المؤمن اربعين جُنَّة، فمتى اذنب ذنبا كبيرا رفع عنه جنة»[1].

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

«للمؤمن اثنان وسبعون سترا، فاذا اذنب ذنبا انهتكت عنه ستر...»[2].

وفي الدعاء المروي بطريق كميل بن زياد عن امير المؤمنين علي ــ عليه السلام ــ جاء:

«اللّهم اغفرلي الذنوب التي تهتك العصم».

من الواضح ان هناك مجموعة من الغرائز المشتركة بين الانسان والحيوان،

---

١ ــ الاختصاص، للشيخ المفيد، ص ٢٢٠.

٢ ــ البحار، ج ٧٣ ، ص ٣٦٢.

اودعـهـا الله سـبـحانه لحكمة في الانسان ايضا كما اودعها في الحيوان لتكون وسيلة لـوصـول هـذه الـموجودات الحية الى كمالها المطلوب. وهذه الغرائز في الانسان هي من شؤون النفس الانسانية.

يـولـد الانـسـان والحـيـوان وهما مجـهـزان بهذه الغرائز، ومن ابرزها: حب الـذات وشـهـوة الطعام والجنس والغضب والدفاع. والفارق بين الانسان والحيوان في هـذا المجـال هـو ان الانـسان بتكامله العقلي والفكري والتربوي التدريجي يسلم عـنـان غـرائـزه بيدتعقُّله ويجعل النفس الناطقة الانسانية هي المتحكمة في وجوده، اما الحيوان فيعيش بغرائزه الحيوانية من ولادته حتى وفاته.

الانـسـان هـو الـقـادر على ان يـسيطر على غرائزه الحيوانية بعد ان تنموفيه المـلـكـات الانسانية، اما اذا لم تنم هذه الملكات فهو ليس باكثر من حيوان، بل هو «اضل» من الحيوان.

ومـثـل هذه الاحاديث كثيرة، ومن اجل ان يتجلى مفهوم العِصَم والجُنَّـة ونـظـائرهما من الكلمات التي تعني الحجب الحائلة دون السقوط في الذنوب نعرض لها بمقدمة.

الجسم والروح

الجـسم هو الاعضاء الظاهرية في بدن الانسان، والروح هي القوة المحركة والموجـهـة لهذه الاعضاء. وفي النصوص الاسلامية ورد التعبير عن الروح بالنفس تارة و بالقلب تارة أخرى.

بـعـض الـعـلـماء قـسـم الـموجـود الانـسـاني الى جسم وروح ونفس، فاعتبر الـنـفـس واسطة بين الجسم والروح، ولايهمنا هذا التقسيم، بل نكرس حديثنا عن النفس سواء كانت هي الروح نفسها ام كانت غيرها.

لايـوجـد في قـامـوس الحـيـوان مـعنى للـعـدل والانـصـاف، ورعـايـة حق الـضـعـيـف، وتشخيص الصالح والطالح، وامثال هذه المفاهيم الانسانية السامية. هدف الحيوان اشباع غرائزه حتى ولو ادى ذلك الى ظلم ابناء نوعه.

طـالما نـرى طائرا يجهد ساعات طوالا في الاوحال بحثا عن طعمة له، وما ان يحصل عليها حتى يهجم عليه طائر آخر فيضرب به بمنقاره على راسه، و بذلك تسقط الطعمة من فم الطائر الباحث ليلتقطها الطائر المهاجم.

وهكذا قد نرى كلبا ينهش في اشلاء حمار ميت، فيا كل منه حتى يبلغ منه الطعام الحلقوم، لكنه لايسمح لكلب آخر ان يشاركه في تلك الجيفة.

يقول علي عليه السلام:

«ان البهائم همها بطونها وان السباع همها العدوان على غيرها...».

و يقول (ع) في رسالة له الى عامله على البصرة عثمان بن حنيف:

«أأقنع من نفسي بان يقال امير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر، او اكون اسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني اكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها او المرسلة شغلها تقمُّمُها، تكترش من اعلافها وتلهو عما يراد بها»[1].

وامام هذه الخصال الحيوانية الموجودة في الانسان تقف الصفات الانسانية السامية لتغطي على تلك الخصال ولتعطي الانسان ميزة عن الحيوان ولتجعله موجودا ملتزما بقيم لا توجد في حياة الحيوان. اما حينما يطلق الكائن البشري لشهواته العنان، فان هذه الشهوات تطغى وتمزق ما عليها من حجب وستائر انسانية، وتحول الفرد الى وحش اين منه وحوش الغاب!!

الله سبحانه شاء ان يكرم ابن آدم ولذلك منحه كل ما يمكنه من ضبط النفس و يصده عن الوقوع في عالم البهيمة، ومن ذلك: «الحياء». فالحياء خصلة انسانية تدفع الانسان نحو المكرمات وتبعده عن السيئات، وهذا المفهوم يوضحه حديث المفضل بن عمر عن الامام جعفر بن محمد الصادق(ع) حيث يقول:

«انظر يامفضل الى ماخص به الانسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق، الجليل قدره، العظيم عناؤه، أعني الحياء، فلولاه لم يقر ضيف ولم يوف بالعِدات، ولم تقض الحوائج ولم يُتَحَرَّ الجميل ولم يتنكب القبيح في شيء من الاشياء، حتى ان كثيرا من الامور المفترضة انما تفعل للحياء، فان في الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه ولم يصل ذا رحم ولم يؤد امانة ولم يعِفّ عن فاحشة»[2].

والروايات التي مرت بنا في مقدمة البحث تصرح بانّ الذنوب تهتك العصم وتزيل الحجب التي تمنع الانسان من السقوط في البهيمية.

---

١ ــ نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٠٥، شرح محمد عبده.

٢ ــ بحار الانوار، ج٣، ص ٨١.

أي الذنوب يهتك العصم؟

نكتفي هنا بذكر الذنوب التي جاءت في حديث الامام السجاد(ع)، ثم نتحدث بايجاز عن دورها في دفع الانسان نحو البهيمية، تاركين التفاصيل الى فرصة أخرى.

قال علي بن الحسين عليه السلام:

«الذنوب التي تهتك العصم:

ــ شرب الخمر،

ــ واللعب بالقمار،

ــ وتعاطي ما يضحك الناس من اللغو والمزاح،

ــ وذكر عيوب الناس،

ــ ومجالسة اهل الرّيب»[1].

وسنوضح كل واحد من هذه الذنوب:

١ ــ شرب الخمر

هو اول الذنوب الدافعة نحو الانغماس في الرذائل، والسبب في ذلك واضح، فهي تسلب الانسان قواه الارادية التي يضبط بها شهواته، و بذلك ينهتك ستار حيائه وتستفحل شهواته، وتصبح الساحة خالية لسيطرة الشهوات فتسير الانسان وتصيره وحشا كاسراً.

يقول الامام علي بن موسى الرضا(ع):

«ان الله تعالى حرّم الخمر لما فيها من الفساد وبطلان العقول في الحقائق وذهاب الحياء من الوجه»[2].

وعنه ايضا:

«... وحرم الله عزوجل الخمر لما فيها من الفساد ومن تغييرها عقول شاربها، وحملها اياهم على انكار الله عزوجل، والفرية عليه وعلى رسله، وسائر ما يكون منهم من

---

١ ــ معاني الاخبار، ص ٢٧٠.

٢ ــ المستدرك، ج ٣، ص ١٣٧.

الفساد والقتل والقذف والزنا وقلة الاحتجاز عن شيء من المحارم...»[1].

وروى حماد بن بشير عن الامام الصادق (ع) عن رسول الله (ص) قوله:

«لايزال العبد في فسحة من الله حتى يشرب الخمر فاذا شربها خرق الله عنه سرباله وكان وليه واخوه ابليس، وسمعه وبصره ويده ورجله يسوقه الى كل شرو يصرفه عن كل خير»[2].

وحينما تتحكم الشهوات في الانسان المخمور تجره الى كل الرذائل وتجعله ينسى شخصيته الانسانية واتزانه ووقاره وعفته، ولذلك قال رسول الله (ص) عن الخمرة:

«الخمر ام الخبائث»[3].

وقال الامام محمد بن علي الباقر (ع):

«ان الله عزوجل جعل للشر اقفالا وجعل مفاتيح تلك الاقفال الشراب...»[4].

نعم... ان الخمرة مفتاح كل الرذائل والموبقات والجرائم، لانّ:

«شارب الخمر اذا شرب زنى وسرق وقتل النفس التي حرّم الله عزوجل وترك الصلاة». كما جاء في حديث رسول الله (ص) لامير المؤمنين علي (ع).[5]

جدير بالذكر ان عقلاء العالم ادركوا ــ ولو بمعزل عن المؤثرات الدينية ــ اضرار الخمرة. فأُثِر عن عقلاء العرب في العصر الجاهلي امتناعهم عن تناولها على الرغم من شيوعها وانتشارها في الجزيرة العربية.

روي ان قيس بن عاصم احتسى الخمرة ليلة ففقد صوابه وارتكب مالا يليق به، ثم افاق، فندم وحرّم الخمرة على نفسه وقال:

رأيت الخمر صالحة وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما
فلا-والله-ا شربها صحيحا ... ولاأشفي بها ابدا سقيما

---

١ ــ علل الشرائع، ج٢، ص ١٦١.
٢ ــ الوسائل، ج٣، ص ٣٥٧.
٣ ــ المستدرك، ج ٣، ص ١٣٩.
٤ ــ اصول الكافي، ج ٤ ، ص ٣٥.
٥ ــ فروع الكافي، ج ٦، ص ٤٠٣.

ولا أُعـطي بها ثـمـنـا حيـاتي ولا أدعـو لهـا أبـداً نـديمـا
فـان الخمـر تـفـضـح شـاربيهـا وتـورثُـهـم بهـا الامـر الـعـظـيما[1]

وروي عن جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه قوله:

«ما شربت خمرا قط لاني علمت اني ان شربتها زال عقلي، وما كذبت قط لان الكذب ينقص المروة، وما زنيت قط لاني خفت اني اذا عملت عُمِل بي، وما عبدت صنما قط لاني علمت انه لايضر ولاينفع».

ولهذه الخصال الاربع اثنى الله عليه عن طريق الوحي الى النبي الكريم[٢].

ومثل هذا الامتناع عن شرب الخمر ورد عن عباس بن مرداس[٣] وعثمان بن مظعون[٤] ومقيس بن قيس[٥].

وفي عصرنا الراهن تجمع التقارير الصحية والجنائية على ان الخمرة عامل كبير في الاصابة بالوان الامراض وفي ارتكاب انواع الجرائم وفي وقوع افظع الحوادث الدامية المؤلمة.

ولا حاجة بنا لان نستعرض الارقام والاحصائيات بهذا الشأن فهي تملأ أعمدة الصحف العالمية يوميا، ولذلك حاولت بعض البلدان الغربية ان تمنع الخمرة في مجتمعها و بذلت لذلك الاموال الطائلة وجهزت كل وسائل اعلامها، لكنها فشلت بسبب عدم وجود الرادع الديني في العملية. وهكذا بلدان الكتلة الشرقية تصب يوميا آلاف اللعنات على الخمرة وتعتبرها من مخلفات عصور البرجوازية والرأسمالية، ولكنها لا تملك القدرة على ان تقي شعوبها من مأساة احتساء الخمرة لأن هذه الخمور افقدتهم الارادة، واصبحوا متورطين في اوحالها.

٢ ـ القمار

من العوامل الاخرى التي تهتك عصم الانسان القمار كما جاء في الحديث الشريف.

---

١ ـ اسد الغابة، ج ٤ ، ص ٢٢٠.
٢ ـ امالي الصدوق، ص ٧٤ ـ ٧٥.
٣ ـ اسد الغابة، ج ٣ ، ص ١١٣.
٤ ـ اسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٣٨٦.
٥ ـ الملل والنحل، ج ٣ ، ص ٣٠٧.

والقمار يقوم اساساً على ربح عفوي وعلى خسارة عفوية، فعن طريقه يثرى الانسان بالصدفة فيرى انه امتلك مالا كثيرا دون جهد ودون عناء، ومثل هذا المال يفقد الانسان صوابه و يسلبه قدرة التحكم فيما كسب فتسوقه شهواته الى تبذير هذا المال في الفساد والموبقات، او في القمار مرة اخرى.

وعن طريق القمار ايضا يفقد الانسان ماله فجأة فيضطرم في نفسه الحقد والبغضاء تجاه الرابح وكثيرا ما يؤدي الامر الى نزاعات دموية انتقامية.

اضف الى ذلك ان القمار يجعل القلوب متصارعة متنافرة، فطاولة القمار تحول الجالسين حولها الى وحوش كل منهم يريد ان يدحر صاحبه و ينهش من لحمه و يشرب من دمه. وما اجمل تعبير القرآن في هذا المجال حيث يقول:

«انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر»

(المائدة: ٩١).

ومن المؤلم ان القمار في عالمنا اصبح وسيلة لانتهاك حرمات الشعوب ومقدرات الامم المستضعفة. فنوادي القمار والميسر العالمية في مونتكارلو ولندن وواشنطن تنشر اعلانات ضخمة تبدي استعدادها لاستقبال «الشخصيات العربية »ولابد ان هذه النوادي تستقبل الشخصيات غير العربية ايضا من المسيطرين على مقدرات عالمنا الاسلامي. والله يعلم ما يجري داخل هذه النوادي من صفقات تباع فيها الشعوب وتشترى بثمن بخس دراهم معدودات تنفقها هذه الشخصيات «المرموقة جدا»! على طاولة القمار!! فانا لله وانا اليه راجعون.

٣ ـ الهزل والمزاح

ثالث الذنوب التي ذكرها الحديث من التي تزيل الحجب وتهتك العصم: «تعاطي ما يضحك الناس من اللغو والمزاح».

و يصف رسول الله (ص) مدى الهوة التي يسقط فيها مثل هذا الانسان فيقول:

«ان الرجل ليتكلم بكلمة فيُضحك بها جلساءَهُ يهوي بها ابعد من الثريا»[1].

ولكي نفهم اثر المزاح والهزل في هتك حجب الحياء والعفة والوقار نذكر

---

١ ـ المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٣٢.

هذه الاحاديث:

قال رسول الله (ص): **«كثرة المزاح تذهب بماء الوجه»** .

وعن ابي محمد الحسن بن علي العسكري (ع) قوله:

«لا تُمارِ فيذهب بهاؤك ، ولا تمازح فيُجترأ عليك»[2].

وعن حمران بن اعين قال: دخلت على ابي جعفر محمد بن علي الباقر(ع) فقلت: اوصني، فقال:

«اوصيك بتقوى الله واياك والمزاح فانه يذهب هيبة الرجل وماء وجهه»[3]

وعن علي (ع) قال:

«لا تمازحنّ صديقا فيعاديك ولا عدوا فيؤذيك».[4]

وفي حديث آخر:

«من كثر مزاحه لم يخل من حقد عليه او استخفاف به»[5].

ومن وصية له(ع) الى ولده الحسن:

«... المزاح يورث الضغائن»[6].

من كل ما ذكر يتبين لنا ان المزاح ا لكثير يؤدي الى خفة في المازح تبعده عن شخصيته المتزنة وعن وقاره، فينزلق الى ارتكاب ذنوب ما كان يرتكبها لو بقيت ستر الحياء والوقار قائمة في نفسه. كما ان هذه الخصلة تستفزُّ الآخرين وتدفعهم الى المجابهة والمقابلة بالمثل، فتحدث آنئذ العداوات والضغائن، وتؤدي الى مالا تحمد عقباه.

وفي سيرة المعصومين نجد انكارا على هذااللون من السلوك ونهيا عنه.

هذا الحكم بن ابي العاص (ابو مروان الذي اصبح ابناؤه فيما بعد خلفاء للمسلمين!!) كان يناصب الرسول والرسالة العداء، وكان يمشي خلف الرسول في مكة فيقلد مشيته استخفافا واستهزاء، والرسول لايعبأ به. وفي مرة التفت الرسول

---

١ ــ بحار الانوار، ج ٧٦، ص ٥٨.

٢ ــ تحف العقول، ص ٤٨٦.

٣ ــ بحار الانوار، ج٧٦، ص ٦٠.

٤ ــ غرر الحكم، ص ٨٢٦.

٥ ــ غرر الحكم، ص ٧١٧.

٦ ــ كشف المحجة، ط النجف، ص ١٧٠.

اليه وهو مشغول بالتقليد، فقال له: «**كن كذلك**». فبقي الى آخر عمره في حالة ارتعاش[1].

والامام علي بن الحسين(ع) التقاه يوما بطّال في المدينة فعمل ما عمل حتى يضحك الامام، لكن الامام واصل سيره ولم يلتفت اليه، واكتفى بأن قال لاصحابه، قولوا له:

«**ان لله يوما يخسر فيه المبطلون**»[2].

ولعلماء النفس المعاصرين اليوم دراسات حول شخصية المستهزئين والساخرين تتجه الى تفسيرهذه الظاهرة بانها ناتجة عن عقدة نقص في الفرد يحاول ان يجبرها بكسر شخصية الآخرين، بعد ان فشل في جبرها بمهارة فنية او عمل انساني. وهذه الحالة توجد في الافراد على اختلاف اعمارهم.

٤ ــ تتبع عيوب الآخرين

وهذا رابع الذنوب التي ذكرها الامام السجاد في حديثه. ولسنا بصدد استعراض كل الآثار السيئة لهذا العمل الشنيع، بل نكتفي بما ذكره الامام عليه السلام من اثر لهذا الذنب في هتك الحجب وازالة السُتُر.

جدير بالذكر ان ذكر عيوب الآخرين يكون ذنبا و يكون سلبيا حينما ينطلق من نفسٍ هَمَّازَةٍ لَمَّازةٍ مريضة، اما اذا انطلق من نفس ناصحة ملتزمة بقواعد النصيحة والاصلاح فليس بذنب بل واجب كل انسان مسلم تجاه اخيه المسلم.

قال علي (ع):

«**من بَصَّركَ وحفظك في غيبك فهو الصديق فاحفظه، ومن ساترك عيبك وعابك في غيبك فهو العدو فاحذره**»[3].

وقال في حديث آخر:

«**شر اخوانك من داهنك في نفسك وساترك عيبك**»[4].

---

١ ــ اسد الغابة، ج٢، ص ٣٤.
٢ ــ بحار الانوار، ج ٤٦، ص ٦٨.
٣ ــ غرر الحكم، ص ٦٧٩.
٤ ــ غرر الحكم، ص ٤٤٦.

وقال ايضا:

«من ابان لك من عيوبك فهو ودودك ومن ساتر عيبك فهو عدوّك» [1].

والمعصومون عليهم السلام شجعوا أصحابهم على تذكيرهم بعيوبهم كي تكون سنة حسنة بين المؤمنين. قال الصادق (ع):

«أحبّ اخواني اليّ من اهدى اليّ عيوبي» [2].

وهذه السنة الحميدة لايمكن طبعا ان تطبق الاّ في جوّ ايماني مليء بالثقة المتبادلة بين الافراد، وخال من الاحقاد والضغائن بينهم، ومفعم بروح التربية التي تجعل الافراد طموحين لان يتكاملوا ولان يزيلوا من انفسهم عيوبهم و يستزيدوا من الاخلاق الفاضلة الكريمة.

فالمذموم في ذكر العيوب اذن هو الذي ينطلق عادة من روح طعانة لعانة تحاول ان تسيء الى الآخرين وتنقص منهم وتشيع الفاحشة في المجتمع. ولايخفى ما لهذا السلوك من اثر في خرق حجب الاحترام المتبادل بين الافراد، وفي نسيان الانسان عيوب نفسه بعد الانشغال بعيوب الآخرين، ومن انتهاك للسُتُر المسدولة على المعايب الموجودة بدرجة واخرى في افراد المجتمع.

قال الله سبحانه وتعالى:

«ولا تلمزوا انفسكم...»(الحجرات: ١١).

وروى الامام الصادق (ع) عن رسول الله (ص) انه قال:

«يا معشر من اسلم بلسانه ولم يخلص الايمان الى قلبه، لا تذموا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله تعالى عورته يفضحه ولو في بيته» [3].

وقال علي (ع):

«من تتبع خفيات العيوب حرمه الله سبحانه موّدات القلوب» [4].

وعن الصادق (ع):

---

١ ــ غرر الحكم، ص ٦٤١.

٢ ــ سفينة البحار، ج ٢ ص ٢٩٥.

٣ ــ اصول الكافي (المترجم)، ج ٤ ص ٥٧.

٤ ــ غرر الحكم، ص ٦٨٣.

«قال عليّ عليه السلام: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[1].

وقال في حديث آخر:

«اكثرالعيب ان تعيب غيرك بمافيك»[2].

وقال في موضع آخر:

«شر الناس من كان متتبعا لعيوب الناس عميا عن معايبه»[3].

لو انكسرت عفة لسان فرد في المجتمع فانه يصبح مصدرا لاغتيال شخصية افراد ذلك المجتمع، و يسلب الامن الاجتماعي منه. ومن الطبيعي ان يسود بين الافراد خوف من هذا اللسان السليط،وقد يؤدي الأمر الى التملق لصاحب هذا اللسان خوفا من لدغته، و بالتالي الى ظهور علاقات غير طبيعية بين الافراد، ولذلك ورد عن رسول الله(ص) انه قال:

«شر الناس عندالله يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرّهم».[4]

وقال (ص) ايضا في وصيته لعلي (ع):

«يا علي الا انبئك بشر الناس؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: من لايغفر الذنب، ولايقيل العثرة، الا انبئك بشر من ذلك؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: من لايؤمن شره، ولا يرجى خيره»[5].

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق(ع) قال:

«من خاف الناس لسانه فهو في النار»[6].

٥ ــ مجالسة أهل الريب

وهو خامس الذنوب التي تهتك العصم كما ورد في الحديث.

ولايخفى ما لأثر معاشرة الفاسدين في انهيار شخصية الانسان في داخل نفسه وفي مجتمعه. فعلى صعيد المحتوى الداخلي يتأثر الانسان بمحيطه انطلاقا من

---

١ ــ سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٩٥.

٢ ــ غرر الحكم، ص ١٩٤ و٤٤٧.

٣ ــ غرر الحكم، ص ١٩٤ و٤٤٧.

٤ ــ اصول الكافي (المترجم)، ج ٤، ص ١٩.

٥ ــ تحف العقول، ص ١٣.

٦ ــ اصول الكافي المترجم، ص ١٩

الطبيعة الاجتماعية الاقتباسية للانسان، فيقتبس من محيطه الفاسد ما يحرفه وما يزيل حجب الحياء والعفة من وجوده. وعلى الصعيد الخارجي تتلوث سمعة الانسان حين يعاشر أهل الريب، وتسقط شخصية الانسان الاجتماعية، وتسقط معها كل الحدود والقيود الاجتماعية التي تؤطر نشاط الانسان وتمنعه من الانزلاق.

ولذلك روي عن رسول الله (ص) قوله:

«اولى الناس بالتهمة من جالس اهل التهمة»[1].

وعن الامام الصادق (ع) قال:

«من جالس اهل الريب فهو مريب»[2].

وقال في حديث آخر:

«لا تصحبوا اهل البدع ولاتجالسوهم فتصيروا عندالناس كواحد منهم»[3].

وعن امير المؤمنين علي (ع) قال:

«من وقف نفسه موقف التهمة فلا يلومنّ من اساء به الظن»[4].

ملخص القسم السادس

١ ــ الذنوب تهتك العصم.

٢ ــ العصم هي الحواجز والاطر التي تميز بين الانسان والحيوان.

٣ ــ الذنوب تقضي على الفضائل الإنسانية في الموجود البشري وتحوله الى وحش كاسر.

٤ ــ الذنوب التي تهتك العصم كما جاء في رواية الامام السجاد خمسة هي: شرب الخمر، واللعب بالقمار، وتعاطي الهزل، وذكر عيوب الناس، ومجالسة اهل الريب.

---

١ ــ المستدرك، ج ٢، ص ٦٥.

٢ ــ بحار الانوار، ج ٧٤، ص ١٩٧.

٣ ــ اصول الكافي (المترجم)، ج ٤، ص ٨٣.

٤ ــ بحار الانوار، ج ٧٤، ص ١٨٦ ــ ١٨٧.

القسم السابع

الذنوب تورث القلق

كلنا يطلب السعادة

كل انسان يسعى للوصول الى هدف يجد فيه مبتغاه، ويحقق عنده مآربه، وتطمئن اليه نفسه، و يرتاح فيه باله، و يسمي هذا الهدف «السعادة».

ومع ان الاتجاه الى هذا الهدف نزعة فطرية في الانسان، الا انه لايستطيع ــ بغير هداية الانبياء ــ ان يسلك الطريق الذي يوصله الى هذا الهدف.

وفي عالمنا اليوم ــ حيث تطورت العلوم والفنون و بلغت التجارب البشرية مرحلة متطورة جدا من تقدمها ــ لم يتوصل العلماء والمفكرون الى تحديد واضح لمفهوم السعادة ولسبيل تحقيقها، حتى ان احد علماء الغرب نقل ٢٨٨ رأياً في السعادة وفي سبيل تحقيقها بينها اختلاف كبير.

سلكت المجموعات البشرية على مرّ التاريخ سبلا شتى للوصول الى هذه الغاية المنشودة... بعضها سلك طريق الثروة ظانا انها السبيل، و بعضها انغمس في ملذات الجنس ليجد فيها مبتغاه، وثمة مجموعات ادركت عقم السبل المادية في الوصول الى السعادة، فسلكت سبلا معنو ية، وكانت اقرب الى خط الانبياء، غير انها لم تهتد السبيل بفكرها وعقلها كما ينبغي، اذ ان العقل البشري قاصر عن فهم كل ابعاد الطريق، والطبيعة الانسانية تدفع حتى بالسالكين سبل المعنو يات الى

الافراط او التفريط ان لم يكن لها من الدين الالهي هاد ومرشد، والمرتاضون نموذج من هذا الانحراف.

ماديات الحياة لاتحقق السعادة

هذه حقيقة تجريبية، فهمها كل السائرين على طريق الماديات... على طريق الاستزادة من الثروة... وعلى طريق الاستزادة من اللذات الجنسية... وعلى طريق الشهرة والمنصب والمقام. فللماديات بريق يخال الانسان انها تحقق سعادته، وما ان يصلها حتى تتبدد احلامه ويجد ما وصل اليه سرابا، وما اجمل التعبير القرآني في هذا المجال حيث يقول:

«والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده، فوفاه حسابه والله سريع الحساب او كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، اذا اخرج يده لم يكديراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور». (النور: ٣٩ــ ٤٠).

ومن هنا اتجهت التربية الاسلامية الى تحرير الانسان من الانشداد الى الماديات، ونهي عن اتخاذ اللذائذ المادية هدفا وعن اعتبارها هي السعادة المنشودة.

روي عن رسول الله (ص) انه قال:

«الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن، والزهد في الدنيا يريح القلب والبدن»[١].

وقال علي (ع):

«المال داعية التعب ومطية النصب»[٢].

وقال ايضا:

«المال للفتن سبب وللحوادث سَلَب»[٣].

و يقول الامام جعفر بن محمد الصادق (ع):

«من تعلق قلبه بالدنيا تعلق منها بثلاث خصال: هم لايفنى، وامل لايدرك، ورجاء لاينال»[٤].

---

١ ــ بحار الانوار، ج ٧٣ ، ص ١٢٠.
٢ ــ غرر الحكم، ص ٥٤.
٣ ــ غرر الحكم، ص ٥٤.
٤ ــ بحار الانوار، ج ٧٣ ، ص ٩١.

وحذر المعصومون من الانخداع ببريق اللذائذ المادية ووهجها، فقال علي ـــ عليه السلام ـــ:

«انما مثل الدنيا كمثل الحية، ما الين مسها وفي جوفها السم الناقع، يحذرها الرجل العاقل ويهوي اليها الصبي الجاهل»[1].

وقال الامام الصادق(ع):

«مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشا حتى يقتله»[2].

وكما ذكرنا فان الحقيقة التي تذكرها هذه النصوص تجريبية مشهودة على مر التاريخ وفي عصرنا الراهن، واليك الآن اسبابها:

السبب الاول

من يبتغ سعادته في مال الدنيا و متاعها يشب في نفسه حرص الاستزادة من هذا المال والمتاع، فلا يشبع ولايستقر، بل يعيش في قلق واضطراب. من هنا قال الصادق(ع):

«جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا»[3].

وروي عن رسول الله(ص) انه قال:

«الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن، والزهد في الدنيا يريح القلب والبدن»[4].

وعن امير المؤمنين علي(ع) قال:

«ثمرة الزهد الراحة»[5].

وما اجمل التشبيه في حديث الامام الباقر(ع) حيث يقول:

«مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفاً كان ابعد لها من الخروج حتى تموت غماً»[6].

---

١ ـــ اصول الكافي (المترجم)، ج ٣ ، ص ٢٠٤.
٢ ـــ نفس المصدر، ص ٢٠٥.
٣ ـــ اصول الكافي، ج٣، ص ١٩٤.
٤ ـــ سفينة البحار، ج ١ ص ٤٦٥.
٥ ـــ غرر الحكم، ص ٣٦٠.
٦ ـــ أصول الكافي، ج ٣ ، ص ٢٠٢.

وفي نصائح لقمان لابنه جاء:

«...ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع اخضر، فاكلت حتى سمنت فكان حتفها عندسمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع اليها آخر الدهر»[1].

كل هذه الروايات تشير الى حالة الحرص والطمع التي تستفحل في وجود الانسان حين ينغمس في الماديات، فتسلب منه الراحة وتحول حياته الى جهنم ان قيل لها هل امتلات تقول: هل من مزيد؟!

السبب الثاني

ان مال الدنيا ومتاعها زائل متغير، لذلك فالمتعلقون بالدنيا مهددون دائما بزوال ما تعلقت قلوبهم به، وهو سبب آخر في اضطرابهم وقلقهم، من هنا اكدت النصوص الدينية على عامل زوال اللذات المادية لتنبيه الانسان و توعيته وابعاده عن الركون الى الدنيا.

قال الامام الصادق(ع):

«من كثر اشتباكه بالدنيا كان اشد لحسرته عند فراقها»[2].

وقال علي ــ عليه السلام ــ :

«والله لو اعطيتُ الاقاليم السبعة بما تحت افلاكها على ان أعصي الله في نملة اسلبها جِلب شعيرة ما فعلته، وان دنياكم عندي لاهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ونعيم يفنى ولذة لا تبقى...»[3]؟!

ويجلس امير المؤمنين علي(ع) ليخصف نعله فيدخل عليه ابن عباس فيستغرب مما يفعل علي وهو حاكم ملايين المسلمين آنذاك. فيدور بينهما حديث ثم يشير علي الى نعليه المزقتين و يقول:

«والله لهما احب اليّ من امرتكم هذه الاّ ان اقيم حقا اوادفع باطلا»[4].

---

١ ــ أصول الكافي، ج ٣، ص ٢٠٢.

٢ ــ بحار الانوار، ج ٧٣، ص ١٩.

٣ ــ نهج البلاغة، ص ٣٤٧، شرح صبحي الصالح.

٤ ــ ارشاد المفيد (المترجم)، ج ١، ص ٣٤١.

و يقف علي(ع) مع اصحابه امام المقابر فيخاطب الموتى انطلاقا من الهدف المذكور في التوعية والتنبيه فيقول:

«يا اهل الديار الموحشة والمحال المقفرة، والقبور المظلمة، يا اهل التربة، يا اهل الغربة، يا اهل الوحدة، يا اهل الوحشة، انتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق. اما الدور فقد سكنت، واما الازواج فقد نكحت، واما الاموال فقد قسمت. هذا خبرما عندنا، فما خبر ما عندكم؟

ثم التفت الى اصحابه فقال: **«اما لو اذن لهم في الكلام لاخبروكم ان خير الزاد التقوى»**[1].

وفي القرآن الكريم قصة عن التقاء موسى: **«عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا حكما»** (الكهف:٦٦)، وهذا الشخص هو الخضر عليه السلام كما جاء في التفاسير، فيواجهان احداثا يتخذ منها الخضر مواقف خاصة تثير استغراب واستنكار موسى. وكان من ذلك ان الخضر وجد جدارا يشرف على السقوط فاقامه واصلحه، فأثار ذلك استغراب موسى و قال له: **«لو شئت لتَّخذت عليه اجرا»**(الكهف: ٧٧). وهنا بدأ الخضر يفسر لموسى كل تلك المشاهدات، و بشأن الجدار قال له: **«واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزلها وكان ابوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا اشدهما...»** (الكهف: ٨٣).

الامام الصادق(ع) فسر الكنز المذكور في الآية بما فيه العبرة والعظة بشأن زوال الدنيا، فروي عنه(ع) ان الكنز كان يضم لوحة ذهبية كتب عليها:

«عجب لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ عجب لمن ايقن بالقدر كيف يحزن؟ عجب لمن ايقن ان البعث حق كيف يظلم؟ عجب لمن يرى الدنيا وتصرُّف اهلها حالا بعد حال كيف يطمئن اليها»[2].

وروي عن الامام الصادق(ع) ايضا: **«ان عيسى ــ عليه السلام ــ راى الدنيا بهيئة امرأة زرقاء العينين فقال لها: كم تزوجت؟**

فقالت: كثيرا.

قال لها: فكل طلقك؟

---

١ ــ نهج البلاغة، الحكمة رقم ١٣٠ .

٢ ــ علل الشرائع، ج ١ ، ص ٥٩.

قالت: لابل كلاً قتلت!

قال: فويح ازواجك الباقين كيف لايعتبرون بالماضين؟! »[1]

وقال الصادق ايضا لرجل يعظه:

«ان كانت الدنيا فانية فالطمأنينة اليها لماذا؟ »[2]

كـل هـذه الـنـصـوص تـركـز على حقيقة زوال نعم الدنيا، كي لايـركن الناس اليها ثم يظلون بعد ذلك قلقين خشية زوال هذه النعم.

السبب الثالث

مـن اسـبـاب الـقلق وعدم اطمئنان المتهافتين على الدنيا هو ان اللاهثين وراء المال والمتاع والشهرة وسائر اللذائذ المعنوية لاينالون مبتغاهم غالبا الا بهضم حقوق الآخرين والصعود على اكتافهم وامتصاص دمائهم، وهذا بالطبع يؤدي من جـهـة الى الـوان مـن الـصـراع والـعـداوات والفتن التي تسلب الراحة من الجميع، اضـافـة الى ان هـذه المـظـالم تـشـكل وخزا في ضمير مرتكبيها، فيعود عليهم الضمير باللوم والتأنيب من جهة أخرى.

كـل مـا نـشاهده على الساحة العالمية من حروب ونزاعات دموية وجرائم انما يعود الى هذا الانشداد بالدنيا ومتاعها.

ولذلك روي عن رسول الله (ص) قوله:

«حب الدنيا رأس كل خطيئة ومفتاح كل سيئة»[3].

وقال علي (ع):

«ايها الـنـاس اياكـم وحب الدنيا فانها رأس كل خطيئة، وباب كل سيئة، وقرآن كل فتنة، وداعي كل رزية»[4].

وقال ايضا في وصية لابنه الحسن (ع):

«وايـاك ان تـغتر بمـا تـرى من اخلاد أهل الدنيا اليها، وتكالبهم عليها... فانما

---

١ ــ بحار الانوار، ج ٧٣، ص ١٢٥.

٢ ــ امالي الصدوق، ص ٧.

٣ ــ ارشاد القلوب، الديلمي، ص ٢٩.

٤ ــ تحف العقول، ص ٢١٥.

اهلها كلاب عاوية، وسباع ضارية، يَهرُّ بعضُها بعضا، ويأكل عزيزُها ذليلَها، ويقهر كبيرُها صغيرَها»[1].

وروى الزهري عن الامام علي بن الحسين (ع) قال:

«ما من عمل بعد معرفة الله جل وعز ومعرفة رسوله ــ صلى الله عليه وآله ــ افضل من بغض الدنيا، وان لذلك لشعبا كثيرة وللمعاصي شعبا...».

ثم تحدث الامام عن شعب المعاصي فقال:

«فتشعب من ذلك: حب النساء، وحب الدنيا، وحب الرياسة، وحب الراحة، وحب الكلام، وحب العلو، والثروة فصرن سبع خصال، فاجتمعن كلهن في حب الدنيا، فقال الانبياء والعلماء بعد معرفة ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئة»[2].

لقد استطاع الاسلام بهذا اللون من التربية ان يخلق جيلا صالحا مترفعا عن الانشدادات البهيمية الى المال والمتاع، متحررا من القيود التي تكبل الروح الانسانية، متعاليا على الغرائز المادية التي تدفع الانسان لأن يعيش بين المعلف والمضجع.. وهذا الجيل الصالح سجل في صدر الاسلام اروع صور التضحية والفداء من اجل الحق والعدل، واجمل المواقف في تاريخ الانسانية. ولو قدّر لهذه التجربة الاسلامية الرائدة ان تستمر في الاطار الذي رسمه الاسلام وبتوجيه مدرسة اهل البيت عليهم السلام لتغير مسير تاريخ البشرية، ولما واجهت الانسانية كل هذه المصائب والآلام، ولما ظهرت في التاريخ الاسلامي تلك الصور المؤلمة التي يندى لها الجبين.

بعد انحراف المسيرة الاسلامية عن خطها النبوي ظهرت في الساحة مآس يقشعر لها جسم الانسان، ناتجة كلها عن انحدار الحكام والمتسلطين على مقدرات المسلمين الى مستنقع ذاتياتهم وشهواتهم وانشداداتهم الدنيوية، فقدموا على مذبح شهواتهم آلاف الضحايا من الابرياء وطلاب الحق وعشاق الرسالة، وان ما كتبه التاريخ عن الحكام الامويين والعباسيين وولاتهم في الامصار والاقطار ليدل بوضوح على غياب الاسلام عن الجهاز الحاكم، وعلى انتكاس هؤلاء الحكام في

---

١ ــ نهج البلاغة، ص ٤٠٠، شرح صبحي الصالح.

٢ ــ اصول الكافي، ج ٣، ص ١٩٧.

حب الدنيا وفي الآثام المترتبة على الارتكاس في حمأة الشهوات المادية [1].

لارهبانية في الاسلام

مر بنا ان الاسلام يحث على الابتعاد عن حب الدنيا، ويحث على عدم الركون والاطمئنان إليها.

وهذه طائفة اخرى من النصوص بهذا الشأن:

عن امير المؤمنين علي (ع):

«انك لا تلق الله سبحانه بعمل أضَرَّ عليك من حب الدنيا» [2].

وفي الحديث القدسي ان الله سبحانه خاطب موسى فقال:

«واعلم ان كل فتنة بدؤها حب الدنيا، ولا تغبط احدا بكثرة المال فان مع كثرة المال تكثر الذنوب» [3].

و يقول علي (ع) ايضا:

«من ذمامة الدنيا عندالله سبحانه ان لاينال ما عنده الا بتركها» [4].

وثمة روايات تؤكد ان حب الدنيا و الآخرة متضادان، لايجتمعان في قلب واحد.

روي عن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام انه قال:

«لايستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لايستقيم الماء والنار في اناء واحد» [5].

«مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان ان ارضى احداهما اسخط الاخرى» [6].

وعن الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) انه قال:

---

١ ــ راجع على سبيل المثال كتب التاريخ بشأن اعمال الحجاج في عصر الامويين وحميد بن قحطبة في عصر العباسيين.

٢ ــ غرر الحكم، ص ٢٨٨.

٣ ــ أصول الكافي، ج ٣، ص ٢٠٣.

٤ ــ غرر الحكم، ص ٧٣٢.

٥ ــ المحجة البيضاء، ج ٥ ، ص ٣٥٧.

٦ ــ بحار الانوار، ج ٧٣ ، ص ١٢٢.

«والله ما الدنيا والآخرة الاّ ككفتي الميزان فايها رُجّح ذهبَ بالآخر»[1].

وازاء هذه الروايات التي تحث على الابتعاد عن التعلق بالدنيا، ثمة روايات تحث على الاستفادة من الدنيا، واستثمارها، وطلب خيراتها، والعمل على طلب الرزق فيها، من ذلك:

روي عن رسول الله (ص) انه قال:

«ملعون من القى كله على الناس»[2].

وهذا يعني الحث على الاعتماد على النفس في المعيشة وعدم التكاسل عن طلب الرزق.

وقال (ص) ايضا:

«العبادة سبعون جزءاً افضلها طلب الحلال»[3].

وقال علي (ع) مجيبا رجلا ذم الدنيا.

«... ان الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد احباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله ومتجر اولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة»[4].

وعن الامام الصادق (ع) في مواضع عديدة قوله:

«نعم العون على الآخرة الدنيا»[5].

وقال:

«ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه»[6].

وعنه ايضا:

«لاخير في من لايحب جمع المال من حلال يكف به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه»[7].

---

١ ــ جامع السعادت، ج ٢، ص ١٩.
٢ ــ الكافي، ج ٥، ص ٧٢.
٣ ــ خصال الصدوق، ج ١ ، ص ٥٤.
٤ ــ الكافي، ج ٥، ص ٧٢.
٥ ــ نفس المصدر السابق.
٦ ــ نهج البلاغة، ص ٤٩٣، شرح صبحي الصالح.
٧ ــ الكافي، ج ٥، ص ٧٢.

وقال عليه السلام:

«الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[1].

وقال لهشام:

«يا هشام ان رايت الصفين قد التقيا فلا تدع طلب الرزق في ذلك اليوم»[2].

و بلغ اهتمام الاسلام بالعمل ان رسول الله(ص) قبل يد سعد الانصاري من عمال المسلمين بعد عودته من تبوك تاكيدا على اهمية العمل في نظر الاسلام.[3]

وقد يخيل الى الانسان بادي الراي ان ثمة تناقضا بين هاتين المجموعتين من الروايات، فيتصور ان الاولى تدعو الى ترك الدنيا والثانية الى ممارسة النشاطات الاقتصادية والاجتماعية فيها. لكننا لو نظرنا الى مجموع هذه الروايات في اطار المفاهيم الاسلامية العامة للكون والحياة لعلمنا ان هذه الروايات جميعا تسير في خط واحد وتستهدف غاية واحدة، وهي تربية الانسان المتحكم في الشؤون المادية للحياة لا المحكوم بها... المسير لجوانب الحياة المادية لا المسير بها... المسيطر على غرائزه ودوافعه المادية لا المسخر لها.

مثل هذا الانسان يندفع بطاقة عظيمة لا تعرف الملل والكلل في خوض معركة الهدم والبناء... هدم كل العقبات التي تقف بوجه تقدم الانسان وتكامله وبناء كل ما هو صالح للانسان، دون ان يكون للغرائز المادية والذاتيات والانانيات دور في هذه المعركة، بل كل نشاطات هذا الانسان تتجه نحو خدمة الصالح العام.

المجموعة الاولى من الاحاديث لا تبعد الانسان عن الدنيا، بل تبعده عن الانشداد البهيمي اليها، تبعده عن تصور الدنيا معلفا ومضجعا، وتجعل الدنيا في عينيه ساحة كفاح للتكامل والسمو، تجعلها مزرعة للآخرة، ولا يمكن للمزرعة ان تؤتي اكلها الا بالعمل الدؤوب المستمر.

شخصيات المعصومين ــ عليهم السلام ــ واصحابهم جسّدت هذه التربية الاسلامية، فهم السباقون في ميادين الجهاد والعلم والعمل كما انهم في مقدمة

---

١ ــ الكافي، ج ٥، ص٧٢ ، ٨٨.

٢ ــ الكافي، ج ٥، ص ٧٢، ٨٨.

٣ ــ اسد الغابة، ج ٢ ، ص ٢٦٩.

المتحررين من كل انشداد دنيوي يجعل الدنيا اكبر همهم.[1].

الاسلام نهى بشدّة عن ترك النعم التي سخرها الله لعباده. قال سبحانه.

«قل من حرّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا...»(الاعراف: ٣١).

وقال رسول الله (ص):

«لا رهبانية في الاسلام»[2].

وقال ايضا:

«ان الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية انما رهبانية امتي الجهاد في سبيل الله»[3].

وقد حث الاسلام على التفاعل مع المجتمع وممارسة النشاطات الاجتماعية البناءة التي تستهدف الصالح العام، ولذلك قال رسول الله (ص):

«من اصبح ولم يهتم بامور المسلمين فليس بمسلم»[4].

وعن الصادق (ع): ان رسول الله سئل.

«من احب الناس الى الله؟ قال: انفع الناس للناس»[5].

و يروى ان امير المؤمنين عليا(ع) عاد علاء بن زياد في بيته بالبصرة فوجد في البيت سعة تفوق القدر المطلوب فقال له:

«ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا؟ أما انت اليها في الآخرة احوج».

ثم تقول الرواية ان علاء قال لامير المؤمنين.

«يا امير المؤمنين اشكو اليك اخي عاصم بن زياد قال: وما له؟ قال:

---

١ ــ تجربة الدولة الاسلامية المباركة في ايران اعادت تجسيد تلك الصور العظيمة، فخلقت الشباب المتدفقين على مؤسسات «جهاد البناء» و «حرس الثورة» لينهضوا باعباء العمران والتطبيب ومحاربة اعداء الاسلام في النهار، وليقفوا ليلا في محاريب العبادة قائمين مصلين ومتضرعين، دون ان يكون لهم في نشاطاتهم الجهادية هدف ذاتي دنيوي (المترجم).

٢ ــ سفينة البحار، ج ١، ص ٥٤٠.

٣ ــ امالي الصدوق، ١٦، ص ٦٦.

٤ ــ اصول الكافي، ج٣ ، ص ٢٣٨.

٥ ــ نفس المصدر، ص ٢٣٩.

لبس العباءة وتخلى عن الدنيا».

فاستدعاه الامام وقال له:

«يا عُديَّ نفسِه، لقد استهام بك الخبيث، اما رحمت اهلك وولدك ؟! اترى الله احل لك الطيبات وهو يكره ان تاخذها؟»

فاستغرب عاصم ان يسمع هذا الكلام من علي فقال:

«يا اميرالمؤمنين هذا انت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ؟!!».

أجابه الامام قال:

«ويحك اني لست كأنت. ان الله فرض على أئمة الحق ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس كي لايتبيّغ بالفقير فقره»[1].

وهكذا نهى اميرالمؤمنين عن الافراط والتفريط في ممارسة الحياة، مؤكدا ان المتقين يعيشون الدنيا بمعيار الآخرة، اي بمعيار يسمو على الانشداد البهيمي اليها، يقول الامام في وصف المتقين:

«اعلموا عبادالله ان المتقين ذهبوا بعاجل الخير وآجله، شاركوا اهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم اهل الدنيا في آخرتهم، قال الله عزوجل: (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق...) سكنوا الدنيا باحسن ما سكنت واكلوها باحسن ما اكلت»[2].

لاطمأنينة الاّ في ظلال الايمان

ذكرنا اختلاف وجهات نظر الفلاسفة والمفكرين حول مفهوم السعادة وسبل تحقيقها. وهذا الاختلاف قائم حتى يومنا هذا، فلا زالت المدارس الفكرية تقدم اطروحاتها لاسعاد البشر. هذا المعسكر الرأسمالي قدم اطروحة اطلاق الحريات ظانا ان سيخلق للانسان على وجه الأرض حياة سعيدة، فاذا به يخلق جحيما يكتوي بنارها الملايين من ابناء الكرة الأرضية. وطلعت الماركسية تصب اللعنات على الراسمالية وتلوّح للبشرية المعذبة بحياة جديدة وصفتها بانها جنة المحرومين على ظهر الارض، ثم ما لبثت حتى خلقت مجتمعا اشبه بالسجن الكبير

---

١ ــ بحار الانوار، ج ٧٠، ص ١١٨ و ١٢١.

٢ ــ تحف العقول، ص ١٧٨.

يحـاول ابـناؤه ان يغتنموا ادنى فرصة للهروب منه وللحصول على جو يستنشقون فيه عبير الحرية.

وعلى مرالتاريخ ظهرت على الساحة اطروحات لاسعاد الانسان ولكن ما لبـثت ان تراجعت واثبتت فشلها، ذلك لانهاصادرةعن ذهن بشر ينظرالى ابعادمعينة من حياة الانسان وتخفى عليه ابعاد أخرى. ولهذا السبب كانت المجموعات البشرية السـائـرة على غير هـدى الله تـعـيـش دومـا في ضـنـك من العيش، وما اجمل التعبير القرآني في هذا المجال مخاطبا البشرية على مرّالعصور:

«قـال اهـبـطا منهـا جميعا بعضكم لبعض عدو فاما ياتينكم مني هدى فمن اتبع هـداي فـلا يـضـل ولا يشقى. ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا، ونحشره يوم الـقـيـامـة اعـمى، قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك اتتك آياتنا فـنـسيتهـا وكـذلـك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة اشد وابقى» (طه: ١٢٣ ــ ١٢٧).

والاحـاديـث تـصـور هذه الحقيقة بتعابير مختلفة، فتذكر ان نتيجة الذنوب خوف مستمر، وقلق دائم، وهم لاينقطع، وحزن طويل:

عـن ابي عـبـدالله (الـصـادق) عليه السلام انه قال: **«ان احدكم ليكثر به الخوف من السلطان، وما ذلك الا بالذنوب فتوقوها ما استطعتم ولا تمادوا فيها»**[١].

وعن امير المؤمنين علي (ع) قال:

«لاوجع اوجع للقلوب من الذنوب»[٢].

وقال:

«... وكم من شهوة ساعة قد اورثت حزنا طويلا»[٣].

وقال ايضا:

«ومن لم يعذل نفسه عن الشهوات خاض في الحسرات وسبح فيها»[٤].

كما تـذكـر النصوص الاسلامية اقتران الطمأنينة بالايمان وعدم انفصالهما عن بعضهما.

---

١ و ٢ ــ اصول الكافي، ج ٣، ص ٣٧٧.

٣ ــ تحف العقول، ص ٢٠٨ و ١٦٨.

٤ ــ تحف العقول، ص ٢٠٨ و ١٦٨.

قال سبحانه:

«الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب»(الرعد: ٢٨).

وعبارة «تطمئن قلوبهم» هي على حد تعبير المفسرين عطف تفسيري على عبارة «الذين آمنوا» أي انها تفيد الملازمة بين الايمان واطمئنان القلوب.

و يقول سبحانه:

«الا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون»(يونس: ٦٢).

وعن ابن عباس، انه سُئل الامام علي(ع) عن **«اولياء الله»** في الآية، فقال:

«قوم اخلصوا لله في عبادته، ونظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها، فعرفوا آجلها حين غرت الخلق سواهم بعاجلها، فتركوا ما علموا انه سيتركهم، واماتوا ما علموا انه سيميتهم»[1].

وقال تعالى:

«ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون» (الاحقاف: ١٢).

هذه الحقيقة اثبتها المؤمنون على خط الرسالة الالهية في صمودهم بنفس هادئة مطمئنة متزنة امام المصاعب والشدائد والمحن، والقرآن الكريم يقص علينا مواقف الانبياء العظام في صمودهم واستقامتهم. فهذا ابراهيم على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام، يواجه الطاغوت المنادي:

«حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين»(الانبياء: ٦٨).

يواجهه بصمود وثبات... و يواجه نيرانه بطمأنينة ووقار، وتذكر الرواية ان جبرائيل(ع) نزل على ابراهيم، وهو في تلك الساعات الشديدة من المحنة فقال له:

«يا ابراهيم الك حاجة؟»

قال: **«اما اليك فلا!!»**[2].

---

١ ــ تفسير الميزان، ج ١٠، ص ٩٨.

٢ــ راجع البحار، ج ١٢، ص ٣٣ ــ ٣٩.

نعم ابراهيم المنقطع عن سوى الله لايرى نفسه بحاجة الى سواه سبحانه، وحسبه انه يعلم ان ما نزل به انما كان بعين الله.

وهكذا الصور التي يقدمها لنا القرآن الكريم عن بقية انبياء الله تقرر هذا الاستقرار والوقار في نفوس المستسلمين لامرالله سبحانه.

والتاريخ والسيرة يخبراننا عن عظمة الايمان في نفوس المسلمين، وعن القدرة التي منحها هذا الدين المبين لاتباعه فجعلهم كالجبال الرواسي امام المصاعب والشدائد.[1]

بعد كل هذا فان تأنيب الضمير هو من عوامل اضطراب الانسان المذنب الآثم. وهذا هو الذي سماه القرآن الكريم بـ«النفس اللوامة» حيث قال سبحانه:

«لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة» (القيامة: ١-٢).

وهذه النفس اللوامة موجودة في كل انسان بدرجة واخرى، وقد تخفى احيانا عند من يمارسون الاجرام و ينغمسون فيه، لكن هذا التأنيب ما يلبث ان يظهر فيقض عليهم مضاجعهم و يسلبهم راحتهم.

ولهذه الظاهرة امثلة كثيرة في تاريخنا وفي حياتنا المعاصرة، انعكست في الأدب والفكر والفن، وألفت حولها الروايات والمسرحيات الكثيرة.

ونختم حديثنا برواية عن الامام علي بن الحسين السجاد (ع) عن الذنوب التي تؤدي الى تأنيب الضمير واثارة النفس اللوامة حيث يقول:

«والذنوب التي تورث الندم: قتل النفس التي حرم الله. قال الله تعالى: «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله» وقال عزوجل في قصة قابيل حين قتل اخاه هابيل فعجز عن دفنه (فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من النادمين)، وترك صلة القرابة حتى يستغنوا، وترك الصلاة حتى يخرج وقتها، وترك الوصية وردّ المظالم، ومنع الزكاة حتى يحضر الموت و ينغلق اللسان»[2].

---

١ ــ عاد الاسلام يسجل صورا عظيمة في خلق مثل هؤلاء الافراد الصامدين المقاومين امام الهزاهز والشدائد، المطمئنين لقدر الله والراضين بقضائه بعد الانتصار الكبير للاسلام في ايران (المترجم).

٢ ــ معاني الاخبار، ص ٢٧٠.

ملخص القسم السابع.

١ ــ كل انسان يطلب السعادة ولكن الكائن البشري لايستطيع ان يبلغ ما يصبو اليه دون هداية الانبياء.

٢ ــ الماديات لا تروي عطش الانسان للسعادة ولا تحقق هدفه الملتهب في نفسه لاسباب:

أ ــ لأن طلب الدنيا لايروي ظمأ الانسان بل يزيده عطشا.

ب ــ لأن مال الدنيا زائل متغير، وطالب الدنيا يزداد قلقه على زوال المتاع كلما ازداد جمعا لحطام الدنيا.

ج ــ لأن جمع المال والمتاع يرافقه عادة ظلم للآخرين واستثمار لهم.

٣ ــ رفض الاسلام الرهبانية،وطلب من الانسان المسلم ان يعيش في خضم الحياة الاجتماعية، ولكن ليقود الاحداث و يسيطر على مسيرة الحياة، لا ان ينقاد ويخضع للشهوات والمغريات المادية.

٤ ــ لايمكن ان تتحقق النفس المطمئنة في وجود الانسان الا في ظل الايمان بالله والاستسلام المطلق له سبحانه.

* * *

القسم الثامن

الذنوب
تؤدي بالانسان الى الكفر

علاقة الذنوب بالكفر

من الاخطار الكبرى للذنوب انسياق المذنب تدريجيا نحو انكار المقدسات الدينية، ونحو رفض الاحكام الالهية وبالتالي الى الكفر والشقاء في الدنيا والآخرة.

سنذكر آثار الذنوب في انجرار الانسان نحو الكفر، وقبل ذلك نستعرض النصوص الدينية في هذا الشان:

قال سبحانه:

«ثم كان عاقبة الذين اساؤوا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءُون»(الروم: ١٠).

و يقول تعالى:

«وما يكذّب به الا كل معتدٍ اثيم، اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» (المطففين: ١٢—١٤).

فالآية الكريمة الاولى تبين ان نتيجة الانغماس في السيئات هي التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها، والآية الثانية توضح ان هؤلاء الآثمين هم الذين يكذبون بآيات الله، وان ما كسبوه من سيئات قد تحول الى صدأ يغطي قلوبهم فلا

يعون الحق.

ولتوضيح هذا المفهوم جاء في الحديث عن الامام الباقر(ع):

«ما من عبد الاوفي قلبه نكتة بيضاء،فاذا اذنب ذنبا خرج في النكتة نكتة سوداء، فان تاب ذهب ذلك السواد، وان تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فاذا تغطى البياض لم يرجع صاحبه الى خير ابدا»[1].

وعن ابي بصير عن الامام الصادق(ع) انه قال:

«اذا اذنب الرجل خرجت في قلبه نكتة سوداء فان تاب انمحت وان زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها ابدا»[2].

وعن الصادق عن ابيه الباقر ــ عليهما السلام ــ انه قال:

«ما من شيء افسد للقلب من خطيئة، ان القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير اعلاه اسفله»[3].

مما تقدم يتضح ان الانسان يغلق ــ في كل ذنب يرتكبه ــ نافذة من نوافذ قلبه، فان تاب عادت فانفتحت هذه النافذة ليدخل منها النور والكلام الحق الى القلب، وان تمادى الانسان في ذنوبه تنغلق كل النوافذ، و يصبح الانسان بعيدا عن استماع صوت الحق، بل رافضا له ومعاندا فينجر حينئذ الى الكفر، و يغرق في مستنقع الانحراف.

قال سبحانه:

«ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله»(ص : ٢٦).

وقال رسول الله(ص):

«ان اخوف ما اخاف علي امتي الهوى وطول الأمل، اما الهوى فانه يصد عن الحق، واما طول الامل فينسي الآخرة»[4].

وعن امير المؤمنين علي (ع) قوله:

«من اطاع هواه هلك»[5].

---

١ و ٢ ــ اصول الكافي، ج ٣، ص ٣٧٣ ــ ٣٧٥.

٣ ــ اصول الكافي، ج ٣ ص ٣٦٩ ــ ٣٧٠.

٤ ــ خصال الصدوق، ج ١ ، ص ٥١.

٥ ــ غرر الحكم، ص ٦١٣.

وعن الصادق (ع) قوله:

«احذروا اهواءكم كما تحذرون اعداءكم فليس شيء اعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد السنتهم»[1].

وعن علي (ع) قال:

«اقمعوا هذه النفوس فانها طلقة تنزع بكم الى شر غاية»[2].

* * *

الذنوب المؤدية الى الكفر

قبل ان نتحدث عن الذنوب المؤدية الى الكفر لابد ان نذكر اولا كيف تجر الذنوب الانسان الى الكفر.

القرآن الكريم يبين ذلك بأسلوب رائع حيث يقول:

«ايحسب الانسان ألّنْ نجمع عظامه، بلى قادرين على ان نسوي بنانه، بل يريد الانسان ليفجر امامه، يسأل ايان يوم القيامة»(القيامة: ٣–٦).

اذ روي في تفسير «ليفجر امامه» انه التعجيل بالذنب والتسويف بالتوبة.

والفخر الرازي يقول في تفسير هذه الآية الكريمة:

ان انكار يوم القيامة اما ان يكون عن شبهة او عن شهوة!

فان كان عن شبهة فقد اجاب الله تبارك وتعالى في الآية الاولى عن هذه الشبهة حيث قال: **«ايحسب الانسان الن نجمع عظامه؟ بلى قادرين على ان نسوي بنانه»** بكل ما فيه من دقائق الخلقة والخطوط.

وأما انكار المعاد عن شهوة وهوى نفس فقد بينه الله تعالى في قوله: **«بل يريد الانسان ليفجر امامه»**. اي ان الانسان يريد ان لايحد شهواته حد، ولايمنع لذائذه مانع، ومن هنا ينكر المعاد و يوم القيامة والحشر والنشر، لانه يرى في ذلك ما يحد شهواته ويمسك عنانه، فينكر، و يقول مستهزئا: **«ايان يوم القيامة»**.

ما اكثر الذين يقيمون حياتهم حول محور الاهواء والشهوات، فما انسجم

---

١ ــ اصول الكافي، ج ٤، ص ٣٠.

٢ ــ غرر الحكم، ص ١٣٨.

معها يقبلونه، وما خالفها يرفضونه، او يؤولونه بشكل ينسجم مع تلك الاهواء والشهوات.

هذه الحالة عبرعنها الامام الحسين بن علي عليه السلام في خطبة له امام اصحابه قرب كربلاء حيث قال:

«ان الناس عبيد الدنيا والدين لعق على السنتهم يحوطونه ما درت معائشهم فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون»[1].

ولا ادل على قول الامام من اولئك الذين وقفوا في وجهه وحاربوه وهم يعرفونه حق معرفته، لكنهم انهاروا امام تهديدات الامويين واغراءاتهم، وانساقوا وراء ذاتياتهم فارتكبوا افظع جريمة عرفها التاريخ.

اما الذنوب التي تجر الانسان الى الكفر فهي:

١ ــ اتباع هوى النفس

من اولى اهداف الانبياء تحرير الانسان من القيود التي تحد مسيرته التكاملية، وتكبل انسانيته المتسامية.

ومن الطبيعي ان تتجه الرسالات الالٓهية الى ضبط الشهوات الحيوانية في الانسان وتحديدها وتهذيبها، وذلك بتقوية ارادة الانسان وتحويله الى موجود متحكم في اهوائه وشهواته، وهذا ما مر بنا في الفصول السابقة.

وكل رغبة نحو الارتكاس في الشهوات،وكل عمل يدفع بالانسان الى الانحدار في البهيمية،يدفع بالانسان في الوقت نفسه الى الابتعاد عن خط الرسالات الالٓهية. ذلك لان الكائن البشري يرى نفسه امام انحدار او صعود، فاذا شاء الانحدار تمرد على الصعود وذمه ورفضه وانكره، وهكذا يتردى الانسان في سقوطه حتى يهلك في مستنقع الكفر والضلال.

يقول الامام علي (ع):

«انما اهلك الناس خصلتان، هما اهلكتا من كان قبلكم وهما مهلكتان من يكون بعدكم: امل ينسي الآخرة، وهوى يضل عن السبيل»[2].

---

١ ــ تحف العقول (المترجم)، ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠.

٢ ــ بحار الانوار، ج ٧٣ ، ص ١٦٧.

و يقول(ع):

«من اطاع نفسه في شهواتها فقد اعانها على هلكتها»[1].

والقرآن الكريم يقرن في آيات عديدة بين اتباع الهوى والسقوط في الضلالة.

يقول سبحانه:

«فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى»(طه: ١٦).

و يقول سبحانه:

«ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا»(الكهف: ٢٨).

وفي موضع آخر يقول تعالى:

«وكذبوا واتبعوا أهواءهم» (القمر: ٣).

و يقول ايضا:

«وان كثيرا ليضلون باهوائهم بغير علم» (الانعام: ١١٩).

وفي تاريخ الامم والشعوب نجد الشهوات واتباع الهوى من اكبر العقبات التي وقفت في وجه الرسالات الالٓهية. وان الدوافع الحيوانية هي التي دفعت المعارضين لان يعارضوا الانبياء و يصدوا عن سبيل الله.

وكذلك كانت الاهواء دوما هي الدافع لحكام الظلم والجور ان ينزلوا نقمتهم بالفئة المؤمنة، ولان يعاملوا الصالحين بانواع القسوة والشدة، ذلك لانهم يرون في هؤلاء المؤمنين والصالحين خطرا على انغماسهم في شهواتهم الهابطة.

بين المأمون والرشيد.

نقل المرحوم الصدوق في «عيون اخبار الرضا» عليه السلام بسنده عن سفيان بن نزار قال: كنت يوما على رأس المأمون فقال: اتدرون من علمني التشيع؟ فقال القوم جميعا: لاوالله ما نعلم قال: علمنيه الرشيد. قيل له: وكيف ذلك والرشيد كان يقتل اهل هذا البيت؟ قال: كان يقتلهم على الملك، لان الملك عقيم، ولقد حججت معه سنة، فلما صار الى المدينة تقدم الى حجّابه وقال:

---

١ ــ غرر الحكم، ص ٦٨٣.

لايدخلنَّ عليَّ رجلٌ من اهل المدينة ومكة من ابناء المهاجرين والانصار و بني هاشم وسائر بطون قريش إلاّ نسب نفسه، فكان الرجل اذا دخل عليه قال: انا فلان بن فلان حتى ينتهي الى جده من هاشمي او قريشي او مهاجري او انصاري، فيصله بخمسة آلاف درهم وما دونها الى مئتي دينار، على قدر شرفه، وهجرة آبائه.

فانا ذات يوم واقف اذ دخل الفضل بن الربيع فقال: يا اميرالمؤمنين على الباب رجل زعم انه موسى بن جعفر بن محمدبن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، فاقبل علينا ونحن قيام على راسه، والأمين والمؤتمن وسائر القواد فقال: احفظوا على انفسكم، ثم قال لآذنه ائذن له، ولاينزل الا على بساطي.

فانا كذلك اذ دخل شيخ مسخد قد انهكته العبادة، كانه شنٌّ بال، قد كلم[1] السجود وجهه وانفه، فلما راى الرشيد رمى بنفسه عن حمار كان راكبه فصاح الرشيد: لا والله الا على بساطي فمنعه الحجاب من الترجل ونظرنا اليه باجمعنا بالاجلال والاعظام، فما زال يسير على حماره حتى سار الى البساط، والحجاب والقواد محدقون به، فنزل فقام اليه الرشيد واستقبله الى آخر البساط وقبل وجهه، وعينيه، واخذ بيده حتى صيره في صدر المجلس، واجلسه معه فيه وجعل يحدثه و يقبل بوجهه عليه، و يسأله عن أحواله.

ثم قال: يا ابا الحسن ما عليك من العيال؟ فقال: يزيدون على الخمس مئة قال: اولاد كلهم؟ قال: لا اكثرهم موالي وحشم، فاما الولد فلي نيف وثلاثون الذكران منهم كذا، والنسوان منهم كذا، قال: فلم لا تزوج النسوان من بني عمومتهنَّ واكفائهنَّ؟ قال: اليد تقصر عن ذلك قال: فما حال الضيعة؟ قال: تعطي في وقت وتمنع في آخر، قال: فهل عليك دين؟ قال: نعم. قال: كم؟ قال: نحو من عشرة آلاف دينار.

فقال الرشيد: يا ابن عم انا اعطيك من المال ما تزوج به الذكران والنسوان وتعمر الضياع فقال له: وصلتك رحم يا ابن عم، وشكر الله لك هذه النية الجميلة والرحم ماسَّة، والقرابة واشجة، والنسب واحد والعباس عم

---

١ ـــ الكلم: مصدر الجرح، جمعه كلوم وكلام.

النبي(ص)، وصنو أبيه، وعم علي بن ابي طالب(ع) وصنو أبيه، وما ابعدك الله من ان تفعل ذلك وقد بسط يدك ، واكرم عنصرك ، واعلى محتدك فقال: افعل ذلك يا أبا الحسن و كرامة.

فقال: يا أمير المؤمنين ان الله عزّوجلّ قد فرض على ولاة عهده، ان ينعشوا فقراء الامة، و يقضوا عن الغارمين، و يؤدُّوا عن المثقَل، و يكسوا العاري ويحسنوا الى العاني، وانت أولى من يفعل ذلك فقال: أفعل يا أبا الحسن، ثم قام، فقام الرشيد لقيامه، وقبل عينيه ووجهه، ثم اقبل عليّ وعلى الأمين والمؤتمن فقال: يا عبدالله و يا محمد و يا ابراهيم بين يدي عمكم وسيدكم، خذوا بركابه، وسوّوا عليه ثيابه، وشيعوه الى منزله، فأقبل ابو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام سراً بيني وبينه فبشرني بالخلافة وقال لي: اذا ملكت هذا الأمر فاحسن الى ولدي، ثم انصرفنا، وكنت أجرأ ولد أبي عليه.

فلما خلا المجلس قلت: يا أمير المؤمنين من هذا الرجل الذي قد عظمته وأجللته، وقمتَ من مجلسك اليه فاستقبلته، واقعدته في صدر المجلس، وجلست دونه ثم أمرتنا بأخذ الركاب له؟ قال: هذا امام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده فقلت: يا أمير المؤمنين او ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟! فقال: انا امام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر امام حق، والله يا بُنيَّ انه لأحق بمقام رسول الله(ص) مني، ومن الخلق جميعا، ووالله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك ، فان الملك عقيم.

فلما اراد الرحيل من المدينة الى مكة أمر بصرة سوداء، فيها مئتا دينار ثم اقبل على الفضل بن الربيع فقال له: اذهب بهذه الى موسى بن جعفر وقل له: يقول لك امير المؤمنين: نحن في ضيقة وسياتيك برُّنا بعد هذا الوقت.

فقمت في صدره فقلت: يا أمير المؤمنين تعطي ابناء المهاجرين والانصار وسائر قريش، وبني هاشم، ومن لا يعرف حسبه و نسبه خمسة آلاف دينار الى ما دونها وتعطي موسى بن جعفر وقد أعظمته وأجللته مئتي دينار؟! أخس عطية اعطيتها أحداً من الناس؟ فقال: اسكت لا ام لك، فاني لو أعطيت هذا ما ضمنته له ما كنت آمنه.

السحرة وفرعون

القرآن يقص علينا نبأ فرعون وملئه بشكل يثير العبرة في كثير من المجالات، ومن ذلك تعنت فرعون واصراره على الغي رغم ما رأى من آيات، كذلك انتقامه من السحرة الذين آمنوا بدين موسى (ع).

هؤلاء السحرة انصاعوا لنداء الحق بعد ان رأوا دلالاته بأعينهم ونفذ الى قلوبهم، فآمنوا، لكن فرعون أبت عليه شهواته ان يؤمن، فلج في عتوٍ ونفور، وهدد السحرة بألوان العذاب:

«قال فرعون: آمنتم له قبل ان آذن لكم؟! انَّ هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها اهلها، فسوف تعلمون * لأ قطّعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لاصلبنكم اجمعين»[1].

لكن المؤمن عميق في ايمانه، لاينثني أمام أصحاب الأهواء والشهوات، ولايزعزعه وعيدهم وتهديدهم وهذا ما يبينه القرآن في جواب السحرة:

«قالوا إنّا الى ربنا منقلبون، وما تنقم منا الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا...»

(الاعراف: ١٢٥-١٢٦)

نعم... هذا الإنتقام ليس الا بسبب ايمانهم، فهذا الايمان هو الذي يخيف الآلهة المزيفة والأرباب الكاذبين الذين يريدون ان يستعبدوا الناس و يستغلوهم لمصالحهم وأهوائهم.

* * *

وهكذا يتكرر المشهد في قصة اصحاب الأخدود، الذين احرقوا الفئة المؤمنة في اخاديد من نار، والسبب واحد يذكره القرآن الكريم اذ يقول:

« وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد»[2].

وهذا نبي الاسلام (ص) قد واجه ما واجه من عنت واضطهاد من قريش بسبب تخوف القرشيين على مصالحهم من الدين الجديد.

لقد كان القرشيون اعرف الناس باخلاق الرسول وطهره وخلوصه

---

١ ـــ الاعراف ـــ ١٢٣ ـــ ١٢٤.

٢ ـــ البروج: ٨.

وصدقه، لكنهم واجهوا الدعوة والدعاة بالوان الاضطهاد بسبب ما كانوا يرونه في الدعوة من تهديد لاستبدادهم ولشهواتهم واهوائهم.

فهذا ابوسفيان رأس المشركين يصف الرسول عند قيصر في القصة التالية بشكل يُفهم انه كان معترفاً حقا بصدق الرسول واخلاصه، لكن هواه أبى عليه ان يستسلم للحق، بل دفعه لان يجابه الحق بكل ما اوتي من قوة.

ابوسفيان يتحدث عن النبي (ص)

روى الطبرى في تاريخه بالاسناد عن عبدالله بن عباس قال: حدثني ابوسفيان بن حرب قال كنا قوما تجارا وكانت الحرب بيننا و بين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت اموالنا فلما كانت الهدنة بيننا و بين رسول الله لم نأمن ان لانجد أمناً، فخرجت في نفر من قريش تجارا الى الشام وكان وجه متجرنا منها غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بارضه من فارس واخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الاعظم وكانوا قد استلبوه اياه فلما بلغ ذلك منهم و بلغه ان صليبه قد استنقذ له، وكانت حمص منزله خرج منها يمشي على قدميه متشكراً لله حين ردَّ عليه ما ردَّ ليصلي في بيت المقدس تُبسَط له البسط وتلقى عليها الرياحين. فلما انتهى الى ايلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته واشراف الروم اصبح ذات غداة مهموما يقلب طرفه في السماء فقال له بطارقته والله لقد اصبحت ايها الملك الغداة مهموما. قال اجل أرِيتُ في هذه الليلة ان مُلكَ الختان ظاهر، قالوا له ايها الملك ما نعلم امة تختتن الا اليهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث الى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب اعناق كل من تحت يديه من اليهود واسترح من هذا الهم فوالله انهم لفي ذلك من رأيهم يديرونه اذ اتاه رسول صاحب بُصْرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تَهادَى الاخبار بينها فقال ايها الملك ان هذا الرجل من العرب من اهل الشاء والابل يحدِّث عن امر حدث ببلاده عجب فسله عنه فلما انتهى به الى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلاده فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم انه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك. قال فلما اخبره الخبر قال جردوه فجردوه فإذا هو مختون فقال هرقل هذا والله الذي أريت لاما تقولون اعطوه ثوبه. انطلق عنا. ثم دعا صاحب شرطته فقال له

قلب لي الشام ظَهراً و بَطناً حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل يعني النبي صلى الله عليه وسلم (قال ابوسفيان) فوالله إنا لَبِغزَّة اذ هجم علينا صاحب شرطته فقال من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا نعم. قال: انطلقوا بنا الى الملك. فانطلقنا معه فلما انتهينا اليه قال: انتم من رهط هذا الرجل؟ قلنا نعم. قال: فايكم أمسُّ به رحما قلت انا (قال ابوسفيان) وأيم الله ما رأيت من رجل أرى أنه كان أنكر من ذلك الاغلف يعني هرقل. فقال أدنه فاقعدني بين يديه واقعد اصحابي خلفي. ثم قال: اني سأسأله فان كذب فردّوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا عليّ ولكني كنت آمر ءً سيداً أتكرَّمُ عن الكذب وعرفت ان أيسر ما في ذلك ان أنا كذبته ان يحفظوا ذلك عليَّ ثم يحدثوا به عني فلم اكذبه فقال اخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدّعي ما يدَّعي؟ قال فجعلت أزهِدُ له شأنه وأصغِر له امره واقول له: أيها الملك ما يهمك من امره، ان شأنه دون ما يبلغك. فجعل لايلتفت الى ذلك ثم قال انبئني عما أسألك عنه من شأنه. قلت: سل عما بدا لك قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: محضٌ أوسطنا نسبا. قال: فاخبرني هل كان احد من اهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يَتَشَبَّهُ به؟ قلت: لا، قال: فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إيّاه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟ قلت: لا. قال: فاخبرني عن اتباعه منكم من هم؟ قال: قلت الضعفاء والمساكين والاحداث من الغلمان والنساء، واما ذوو الاسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم احد. قال: فاخبرني عن من تبعه ايحبه و يلزمه أم يقليه و يفارقه؟ قال: قلت ما تبعه رجل ففارقه. قال فاخبرني كيف الحرب بينكم و بينه؟ قال: قلت سجال يُدال علينا وندال عليه. قال: فاخبرني هل يغدر؟ فلم أجد شيئا مما سالني عنه اغمزه فيه غيرها قلت: لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره. قال: فوالله ما التفت اليها مني ثم كرر عليَّ الحديث قال سألتك كيف نسبه فيكم؟ فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا وكذلك ياخذ الله النبي اذا اخذه لا يأخذه الا من اوسط قومه نسبا، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به؟ فزعمت أن لا، وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه؟ فزعمت ان لا، وسألتك عن اتباعه فزعمت انهم الضعفاء والمساكين والاحداث والنساء وكذلك اتباع الانبياء في كل زمان، وسألتك عمن يتبعه ايحبه و يلزمه ام يقليه و يفارقه؟ فزعمت ان لايتبعه احد فيفارقه وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلبا

فتخرج منه، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت ان لا، فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت اني عنده فأغسل قدميه، انطلق لشأنك. قال: فقمت من عنده وانا اضرب احدى يدي بالأخرى واقول اي عبادالله لقد أَمِرَ أمرُ ابن ابي كبشة اصبح ملوك بني الاصفر يهابونه في سلطانهم بالشام. قال: وقدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية بن خليفة الكلبي، بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم. السلام على من اتبع الهدى. اما بعد أسلم تسلم وأسلِمْ يؤتك الله أجرك مرتين، وان تتولَّ فان اثم الأكّارين عليك.

٢ ــ الكبر والغرور.

من الذنوب التي تؤدي الى الكفر وانكار المقدسات الدينية الكبر والغرور.

فالخضوع للحق يحتاج الى نفس طيعة للحق منصاعة للنداء الالّهي، والتكبر والغرور يصمُّ الانسان عن استماع الرسالات الالّهية ويمنعه من الذوبان في خطها، ولذلك كان التكبر من اهم اسباب امتناع الاستجابه لنداء الانبياء.

القرآن الكريم يعبر عن هذه الحقيقة في حديثه عن الذين عارضوا الخضوع لنداء الانبياء متذرعين بأتفه الذرائع التي تنم عن غرورهم كقول فرعون وملئه عن موسى وهارون:

«أنؤمن لبشرين مثلنا...»(المؤمنون: ٤٧).

وهذا ايضا منطق قوم نوح وعاد وثمود في مواجهتهم أنبياء الله:

«قالوا ان انتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا»

(ابراهيم: ١٠).

و يتحدث القرآن في موضع آخر عن هذا المنطق بشكل عام، فيقول:

«ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب أليم ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا...»

(التغابن: ٥ ــ ٦).

وهذه الآية تصرح بأن كفر هؤلاء ناتج عن تكبرهم.

والى هذا ايضا يشير الامام الصادق (ع) فيقول:

«اصول الكفر ثلاثة: الحرص، والاستكبار، والحسد...»[1].

ثم يستشهد الامام بابليس الذي دفعه كبره الى عدم سجوده لآدم و بالتالي الى الكفر، كما يبين القرآن ذلك حيث يقول:

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين» (البقرة: ٣٤).

وفي حديث آخر قال الراوي: سألت أبا عبدالله الصادق(ع) عن أدنى الالحاد، فقال: **«ان الكبر أدناه»**[2].

قصة من القرآن

بين المدينة والشام ارض كان يسكنها قوم ثمود، وكانوا يتنعمون في هذه الارض و يوسعون رقعتها باستمرار، لكنهم كانوا بعيدين عن خط التوحيد، واتخذوا لهم الاوثان والاصنام.

ارسل الله اليهم صالحا ليهديهم سبيل الرشاد، و ينقذهم من الجهل والكفر والضلال.

بقي صالح فيهم اعواما يدعوهم الى الهدى، لكنهم عصوه وأبوا أمام دعوته الا طغيانا وعُتُوّاً ونفوراً، بسبب استكبارهم، وميولهم الحيوانية المتجهة لاستضعاف الآخرين. يقول القرآن الكريم عنهم:

«قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم: اتعلمون ان صالحا مرسل من ربه؟ قالوا: انا بما ارسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا انا بالذي آمنتم به كافرون»[3].

وكانت عاقبة هؤلاء القوم كما وردت في حديث عن أبي جعفر(ع) حيث قال: ان رسول الله(ص) سأل جبرئيل (ع) كيف كان مهلك قوم صالح (ع) فقال: يا محمد ان صالحا بعث الى قومه وهو ابن ست عشرة سنة فلبث فيهم حتى بلغ عشرين ومئة سنة لايجيبونه الى خير، قال: وكان لهم سبعون صنما يعبدونها من

---

١ ــ اصول الكافي، ج ٣، ص ٣٩٦.
٢ ــ الكافي: ج ٣، ص ٤٢١.
٣ ــ الاعراف: ٧٥.

دون الله عزوجل فلما رأى ذلك منهم قال: يا قوم بعثت اليكم وانا ابن ست عشرة سنة وقد بلغت عشرين ومئة سنة وانا اعرض عليكم امرين ان شئتم فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم فيما سألتموني الساعة وان شئتم سألت آلهتكم فان اجابتني بالذي أسألها خرجت عنكم فقد سئمتكم وسئمتموني، قالوا: قد انصفت يا صالح. فاتّعدوا ليوم يخرجون فيه قال: فخرجوا باصنامهم الى ظهرهم ثم قربوا طعامهم وشرابهم فأكلوا وشربوا فلما أن فرغوا دعوه.

فقالوا: يا صالح سل، فقال لكبيرهم: ما اسم هذا؟ قالوا: فلان، فقال له صالح: يا فلان اجب فلم يجبه، فقال صالح: ماله لايجيب؟ قالوا: أُدع غيره، قال: فدعاها كلها باسمائها فلم يجبه منها شيء، فأقبلوا على أصنامهم فقالوا لها: مالك لاتجيبين صالحا؟ فلم تجب فقالوا: تنح عنا ودعنا وآلهتنا ساعة، ثم نحّوا بسطهم وفرشهم ونحّوا ثيابهم وتمرغوا على التراب وطرحوا التراب على رؤوسهم وقالوا لأصنامهم: لئن لم تجبن صالحا اليوم لتفضحنَّ، قال: ثم دعوه فقالوا يا صالح أدعها، فدعاها فلم تجبه، فقال لهم: يا قوم قد ذهب صدر النهار ولا ارى آلهتكم تجيبني فاسألوني حتى أدعو الهّي فيجيبكم الساعة.

فانتدب له منهم سبعون رجلا من كبرائهم والمنظور إليهم منهم، فقالوا: يا صالح نحن نسألك فان أجابك ربك اتبعناك وأجبناك و يبايعك جميع اهل قريتنا، فقال لهم صالح(ع) سلوني ما شئتم، فقالوا: تقدم بنا الى هذا الجبل ـــ وكان الجبل قريبا منهم ـــ فانطلق معهم صالح فلما انتهوا الى الجبل قالوا: يا صالح أدع لنا ربك يخرج لنا من هذا الجبل الساعة ناقة حمراء شقراء و براء عشراء بين جنبيها ميل، فقال لهم صالح لقد سألتموني شيئاً يعظم عليَّ ويهون على ربي جل وعز قال: فسأل الله تعالى صالح ذلك فانصدع الجبل صدعا كادت تطير منه عقولهم لمّا سمعوا ذلك ثم اضطرب ذلك الجبل اضطرابا شديداً كالمرأة اذا أخذها المخاض ثم لم يفجأهم الا رأسها قد طلع عليهم من ذلك الصدع فما استتمت رقبتها حتى اجترت ثم خرج سائر جسدها ثم استوت قائمة على الأرض.

فلما رأوا ذلك قالوا: يا صالح ما أسرع ما اجابك ربك، ادع لنا ربك يخرج لنا فصيلها فسأل الله عزوجل ذلك فرمت به فدب حولها فقال لهم: يا قوم أبقي شيء؟ قالوا: لا. انطلق بنا الى قومنا نخبرهم بما رأينا و يؤمنون بك قال: فرجعوا فلم يبلغ السبعون اليهم حتى ارتد منهم أربعة وستون رجلا وقالوا: سحرٌ

وكـذبٌ. قـال: فانتهوا الى الجميع فقال الستة: حق، وقال الجميع: كذب وسحر، قال: فانصرفوا على ذلك، ثم ارتاب من الستة واحد فكان فيمن عقرها[١].

الكبر اخرجه من الدين

ذكـر اهل التاريخ انه لما أسلم جبلة بن الايهم الغساني ــ وهو آخر ملوك آل جـفـنـة ــ كـتـب الى عـمر يستأذنه في القدوم عليه فأذن له عمر فخرج اليه في خمس مئة من اهل بيته من عكٍّ وغسّان حتى اذا كان على مرحلتين كتب الى عمر يـعـلـمـه بقدومه فسر عمر وأمر الناس باستقباله و بعث اليه بأنزال وامر جبلةُ مئتي رجـل مـن اصـحابه فلبسوا السلاح والحرير وركبوا الخيول معقودة اذنابها وألبسوها قلائد الذهب والفضة ولبس جبلة تاجه وفيه قرطا مارية وهي جدته ودخل المدينة فلم تبق بها بكر ولا عانس الا تبرجت تنظر اليه والى زيه فلما انتهى الى عمر رحب به والطفه وأدنى مجلسه ثم أراد عمر الحج فخرج ومعه جبلة فبينا هو «جبلة» يطوف بـالـبـيـت اذ وطـئ ازاره رجـل مـن بني فـزارة فـانحل فرفع جبلة يده فهشم انف الـفـزاري فـاسـتعدى عليه عمر فبعث الى جبلة فأتاه فقال ما هذا؟ قال نعم يا أمير المؤمنين انـه تـعـمـد حـلّ ازاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف، فـقـال له عمر قد اقررت فاما ان ترضي الرجل واما ان اقيده منك، قال جبلة ماذا تـصـنـع بي؟ قـال آمر بهشم أنفك كما فعلت، قال وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وهو سـوقـة وانـا مـلـك؟ قـال ان الاسـلام جمـعـك وايـاه فليس تفضله بشيء الا بالتقى والـعـافـيـة. قـال جـبـلة قد ظننت يا أمير المؤمنين أني اكون في الاسلام أعز مني في الجـاهـلـيـة. قـال عـمر دع عنك هذا فانك ان لم ترض الرجل اقدته منك. قال اذاً اتـنـصر. قـال ان تنصرت ضربت عنقك لانك قد اسلمت فان ارتددت قتلتك. فلما رأى جـبـلة الصدق من عمر قال أنا ناظر في هذا ليلتي هذه، وقد اجتمع بباب عمر مـن حيّ هذا وحيّ هذا خلق كثير حتى كادت تكون بينهم فتنة، فلما أمسوا اذن له عمر في الانصراف حتى اذا نام الناس وهدأوا حمل جبلة بخيله و رواحله الى الشام فاصبحت مكة وهي منهم بلاقع، فلما انتهى الى الشام تحمل في خمس مئة رجل من قومه حتى أتى القسطنطينية فدخل الى هرقل فتنصر هو وقومه، فسُرَّ هرقل بذلك جداً

---

١ ــ روضة الكافي، ج ١، ص ٢٦٧.

وظن انه فتح من الفتوح عظيم و أقطعه حيث شاء وأجرى عليه من النزل ما شاء وجعله من محدثيه وسماره... ثم ان عمر بدا له ان يكتب الى هرقل يدعوه الى الله جل وعز والى الاسلام، ووجه اليه رجلا من اصحابه وهو جثامة بن مساحق الكناني فلما انتهى اليه الرجل بكتاب عمر اجاب الى كل شيء سوى الاسلام. فلما اراد الرسول الانصراف قال له هرقل: هل رأيت ابن عمك هذا الذي جاءنا راغبا في ديننا؟ قال: لا. قال: فَأْلقَه. قال الرجل: فتوجهت اليه فلما انتهيت الى بابه رأيت من البهجة والحسن و السرور مالم ار بباب هرقل مثله، فلما دخلت عليه اذا هو في بهو عظيم وفيه من التصاوير ما لا احسن وصفه، واذا هو جالس على سرير من قوارير، قوائمه اربعة اسد من ذهب، واذا هو رجل أصهب ذو سبال وعثنون وقد أمر بمجلسه فاستقبل به وجه الشمس فما بين يديه من آنية الذهب والفضة يلوح فما رأيت احسن منه فلما سلمت رد السلام ورحب بي والطفني ولامني على تركي النزول عنده ثم اقعدني على شيء لم اثبته فاذا هو كرسي من ذهب فانحدرت عنه فقال مالك؟ فقلت: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا. فقال جبلة ايضا مثل قولي في النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكرته وصلى عليه، ثم قال: يا هذا انك اذا طهرت قلبك لم يضرك ما لبسته ولا ما جلست عليه، ثم سألني عن الناس والحف في السؤال عن عمر ثم جعل يفكر حتى رأيت الحزن في وجهه فقلت ما يمنعك من الرجوع الى قومك والاسلام. قال: أبعد الذي قد كان؟ قلت: قد ارتد الاشعث بن قيس ومنعهم الزكاة وضربهم بالسيف ثم رجع الى الاسلام. فتحدثنا مليا ثم أوما الى غلام على رأسه فولّى يُحضِر، فما كان الآ هنيهة حتى اقبلت الاخونة يحملها الرجال فوضعت وجيء بخوان من ذهب فوضع امامي فاستعفيت منه فوضع أمامي خوان خليج [1] وجامات قوارير وأديرت الخمر فاستعفيت منها فلما فرغنا دعا بكاس من ذهب فشرب منه خمساً عدداً ثم أوما الى غلام فولّى يحضر، فما شعرت الآ بعشر جوار يتكسرن في الحلي، فقعد خمس عن يمينه وخمس عن شماله، ثم سمعت وسوسة من ورائي فاذا أنا بعشر أفضل من الأول، عليهنَّ الوشي والحلي، فقعد خمس عن يمينه وخمس عن شماله، وأقبلت جارية على رأسها طائر أبيض كأنه لؤلؤة مؤدب وفي يدها اليمنى جام فيه مسك وعنبر قد خلطا

---

[1] ــ الخليج الخشب واناء كبير من خشب.

وأنعم سحقها، وفي اليسرى جام فيه ماء ورد، فالقت الطائر في ماء الورد فتمعك بين جناحيه و ظهره و بطنه، ثم اخرجته والقته في جام المسك والعنبر فتمعك فيها حتى لم يدع فيها شيئا، ثم نفرته فطار فسقط على تاج جبلة ثم رفرف ونفض ريشه فما بقي عليه شيء الا سقط على رأس جبلة، ثم قال للجواري اطربنني. فخفقن بعيدانهن يغنين:

لله در عصابة نادمتهم | يوما بجلّق في الزمان الاول

فاستهل واستبشر وطرب ثم قال زدنني. فاندفعن يغنين:

لمن الدار اقفرت بمعان | بين شاطي اليرموك فالصمّان

قال اتعرف هذه المنازل؟ قلت: لا. قال: هذه منازلنا في ملكنا باكناف دمشق، و هذا شعر ابن الفريعة حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: أما انه مضرور البصر، كبير السن. قال: ياجارية هات. فاتته بخمس مئة دينار وخمسة اثواب من الديباج. فقال: ادفع هذا الى حسان وأقرئه مني السلام ثم راودني على مثلها فابيت. فبكى ثم قال لجواريه ابكينني فوضعن عيدانهنّ وأنشأن يقلن قوله:

تنصرت الاشرافُ من عار لطمة | وما كان فيها لوصبرت لها ضررْ
تكنفني فيها لجاج ونخوة | و بعت بها العين الصحيحة بالعورْ
فياليت أمي لم تلدني وليتني | رجعت الى القول الذي قال لي عمر
و ياليتني أرعى المخاض بدمنةٍ | وكنت أسيراً في ربيعةَ أو مضر
و ياليت لي بالشام ادنى معيشةٍ | أجالس قومي ذاهبَ السمع والبصر

ثم بكى و بكيت معه حتى رأيت دموعه تجول على لحيته كانها اللؤلؤ، ثم سلمت عليه وانصرفت[1].

إرتباط الكِبْر بالكفر

نستطيع أن نفهم ارتباط الكبر بالكفر من خلال آيات القرآن وروايات المعصومين. يقول سبحانه:

«ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ان في صدورهم الا كبر

---

١ ــ مقدمة ديوان حسان ــ ط مصر، ص : ش ــ خ.

ماهم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير»(غافر : ٥٦).

فالكبر هوالذي يدفع بهؤلاء الى الجدل والعناد، و يشكل بينهم و بين نداء الحق حجابا. ولذلك وصفته النصوص بانه من العيوب والآفات التي تهدد شخصية الانسان.

يقول الامام علي (ع):

«**الكبر شر العيوب**»[١].

و يقول:

«**شر آفات العقل الكبر**»[٢].

وعن رسول الله (ص) قوله:

«**آفة العلم الخيلاء**»[٣].

وعن علي (ع) قوله:

«**العجب آفة الشرف**»[٤].

وعن رسول الله(ص) قوله:

«**آفة الحسب الافتخار والعجب**»[٥].

وعن علي (ع) قوله:

«**العجب يفسد العقل**»[٦].

وعن الامام الباقر(ع) قوله:

«**ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلاّ نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك قلّ ذلك اوكثر**»[٧].

وفي حديث آخر للامام وَصَفَ المعجب بانه إنسان قد فقد عقله تماما.

قال الإمام علي(ع): «**المعجَبُ لاعقلَ له**»[٨].

١،٢ــ غرر الحكم، ص ٢٢ و ٤٤٨.

٣ ــ بحار الانوار، ج ٧٣ ، ص ١٩٦.

٤ ــ غرر الحكم، ص ٣٢.

٥ ــ بحار الانوار، ج ٧٣، ص ٢٢٨.

٦ ــ غرر الحكم، ص ٢٦.

٧ ــ سفينة البحار، ج٢، ص ٤٦٠.

٨ ــ غرر الحكم، ص ٣٤.

٣ ــ الحسد

الحسد من الصفات الذميمة التي تجر وراءها انواع المفاسد. ونتعرض هنا الى أسوأ تلك المفاسد... الكفر.

القرآن يذكر في مواضع متعددة ان السبب الذي حال دون قبول كثير من المشركين وأهل الكتاب هو الحسد.

قال سبحانه:

«ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق»(البقرة: ١٠٩).

وقال تعالى:

«ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت و يقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا... (الى ان يقول): ام يحسدون الناس على ما آتاهم من فضله...»(النساء: ٥١ ــ ٥٤).

منَعَه الحسدُ من الإيمان

روى سلمة بن سلامة، وهو من اصحاب بدر، قال: كان لنا جار يهودي، خرج علينا يوما من بيته حتى وقف على ديارنا وأنا يومئذ حدث، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، قال: فقال ذلك لقوم اهل شرك اصحاب اوثان، لايرون ان بعثاً كائنٌ بعد الموت، فقالوا له: ويحك يافلان! او ترى هذا كائنا، ان الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها باعمالهم؟ قال: نعم، و يود احدكم ان يكون في تنور يحمونه فيطيّنونه عليه بدلا من تلك النار.

فقالوا له: ويحك يافلان! فما آية ذلك؟

قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، واشار بيده الى مكة واليمن، فقالوا ومتى تراه؟

قال: فنظر إليَّ وأنا من احدثهم سنا، فقال: ان يستنفد هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار، حتى بعث الله محمداً

رسوله (ص)، وهو حي بين اظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغيا وحسدا.

قال: فقلنا له: ويحك يا فلان الست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟

قال: بلى، ولكن ليس هو النبي الذي ذكرته.[1]

سبب عداء أبي جهل

روى الزهري ان أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والاخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثقفي خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لايعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لانبرح حتى نتعاهد الا نعود: فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما اصبح الاخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: اخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد.

فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت اشياء اعرفها واعرف ما يراد بها، وسمعت اشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها.

قال الاخنس: وانا ــ والذي حلفت به ــ كذلك.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال: ماذا سمعت! تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف، أطعَموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فاعطينا، حتى اذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لانؤمن به ابداً، ولا نصدقه. قال: فقام عنه الاخنس وتركه[2].

* * *

من هذين الشاهدين التاريخيين ومن الشواهد الكثيرة في تاريخنا الاسلامي يتضح ان الحسد كان وراء كثير مما واجهته الرسالة الاسلامية من لجاج

---

١ ــ سيرة ابن هشام، المجلد الاول، ص ٢٢٦.

٢ ــ سيرة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا و آخرين، المجلد الاول، ص ٣١٦.

وعناد وابتعاد عن كلمة الحق.

كما ان الحسد ايضا كان من العوامل التي اقصت الرساليين عن ممارسة دورهم في الحياة الاسلامية وابعدتهم عن القيادة، وكان ذلك سبب كل ما شهدته الساحة من انحراف على مدى التاريخ. يقول علي (ع) عن الفئة التي عارضته ووقفت في وجهه:

«ان هؤلاء قد تمالؤوا على سخطة امارتي وسأصبر مالم أخَفْ على جماعتكم فانهم إن تَمَّموا على فَيالَةِ هذا الراي انقطع نظام المسلمين، وانما طلبوا هذه الدنيا حسداً لمن أفاءها الله عليه، فأرادوا ردّ الامور على أدبارها»[1].

ما ذكرناه بشأن الحسد حتى الآن يرتبط بتأثير الحسد في دفع الانسان نحو الكفر. وهو كذلك يسلب الانسان سعادته و يبعده بالتدريج عن روح الالتزام بالدين و بالخلق الكريم، ولذلك شدد أئمة الدين على الابتعاد عن الحسد.

قال علي (ع) ينصح اتباعه:

«ولا تحاسدوا فان الحسد يأكل الايمان كماتأكل النارالحطب»[2].

وعن الصادق (ع) انه قال:

«آفة الدين: الحسد والعُجب والفخر»[3].

وعن الامام موسى بن جعفر عليه السلام انه قال:

«قال رسول الله (ص) ذات يوم لأصحابه: ألا انه قد دب اليكم داء الأمم من قبلكم وهو الحسد ليس بحالق الشعر لكنه حالق الدين...»[4].

بعض النصوص ركزت على ان السبب في كفر ابليس هو الحسد. قال علي (ع):

«الحسد معصية ابليس الكبرى»[5].

والامام الصادق عليه السلام قد قسم الحسد في حديث الى قسمين: حسد

---

١ ـ نهج البلاغة، ص ٢٤٤، شرح صبحي الصالح.

٢ ـ نهج البلاغة، ص ١١٨، شرح صبحي الصالح، وهناك احاديث كثيرة بهذا المضمون.

٣ ـ اصول الكافي، ج ٣ ، ص ٤١٨.

٤ ـ بحار الانوار، ج ٧٣ ، ص ٢٥٣.

٥ ـ غرر الحكم، ص ٣٨.

الغفلة وحسد الفتنة، وقال عن الثاني:

«والحسد الثاني الذي يصير به العبد الى الكفر والشرك فهو حسد ابليس في ردّه على الله وابائه عن السجود لآدم(ع)»[1].

اخوة يوسف

من العبر الكبيرة ــ في قصة يوسف واخوته خطر الحسد على السلوك الانساني، اذ من الممكن ان يدفع الحسد بالانسان لان يرتكب من الآثام ما ارتكبه اخوة يوسف، فهؤلاء خططوا للتخلص من يوسف كي يكون ودّ ابيهم خالصا لهم:

«اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا، ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين»[2].

فهؤلاء أجازوا لأنفسهم ان يبيدوا أخاهم و يكذبوا عند أبيهم، ويجعلوا أباهم دهرا في حزن وألم، كل ذلك ليشفوا عقدة الحسد في أنفسهم.

* * *

٤ ــ الخمر

من الذنوب التي تعدها الروايات مؤدية الى الكفر: الادمان على الخمر. فالخمر تسلب الايمان تدريجيا من الانسان و تؤدي به أخيراً الى الانكار.

اضافة الى مساوئ الخمر التي ذكرناها في القسم السادس، فان لها سيئة كبرى هي دفع الانسان الى انكار المقدسات الدينية والمعتقدات الغيبية وتجعل الانسان ــ بتعبير الروايات ــ تحت تصرف الشيطان تماما.

فقد روي عن الامام علي بن موسى الرضا(ع) انه قال:

«حرم الله عزوجل الخمر لما فيها من الفساد ومن تغييرها عقول شاربيها وحملها إياهم على إنكار الله عزوجل والفرية عليه وعلى رسله وساير ما يكون منهم من الفساد

---

١ ــ تحف العقول، ص ٣٧١.

٢ــ يوسف: ٨ ــ ٩.

والقتل والقذف وقلة الاحتجاز عن شيء من المحارم، فبذلك قضينا على كل مسكر من الأشربة أنه حرام محرم لانه يأتي من عاقبته ما يأتي من عاقبة الخمر، فليجتنب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتولانا وينتحل مودتنا كل شارب مسكر فانه لا عصمة بيننا وبين شاربيه»[1]

وسئل الامام الصادق(ع) عن حرمة الخمر فقال:

«حرمها لانها ام الخبائث، وأسُّ كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبه لايعرف ربه، ولايترك معصية الاركبها، ولا حرمة الآ انتهكها، ولارحم ماسّة الاقطعها، ولا فاحشة الا اتاها، والسكران زمامه بيد الشيطان ان أمره ان يسجد للأوثان سجد، وينقاد حيثما قاده»[2].

الامام الباقر يصف شرب الخمر

روى الكليني قدس الله روحه في الكافي أن الامام الباقر(ع) عند قدومه المسجد الحرام، رآه جمع من قريش وقد التف حوله الناس، فسألوا عنه، فقيل لهم امام الناس في العراق، فقرروا ان يبعثوا واحدا منهم ليسأل الامام، فجاء اليه وقال:

ــ يا ابن عم ما اكبر الكبائر؟ قال: **«شرب الخمر»**.

فرجع الى قومه وأخبرهم بالجواب، فطلبوا منه ان يعود و يكرر السؤال، فذهب فأجابه الامام:

«ألم أقل لك يا آبن اخ شرب الخمر؟»

وعاد الى قومه فاخبرهم بالجواب، فألحوا عليه أن يعود ثالثة و يكرر السؤال، و بعد اصرار طويل، عاد وطرح السؤال فقال الامام:

«ألم أقل لك يا ابن اخ شرب الخمر؟ ان شرب الخمر يدخل صاحبه في الزنا والسرقة وقتل النفس التي حرم الله، وفي الشرك بالله، وافاعيل الخمر تعلو على كل ذنب...»[3].

---

١ ــ علل الشرائع، ج ٢، ص ١٦١.

٢ ــ الاحتجاج، الطبرسي، ط حجر، ص ١٩٠.

٣ ــ الكافي، ج ٦، ص ٤٢٩.

نموذج من الخلفاء الأمويين

الوليد بن يزيد من الخلفاء الأمويين المشهورين بشرب الخمر، وهو مضرب الامثال في الانغماس بالسكر والشهوات، و يقال انه صنع في بيته حوضا ملأه بالخمر، وكان يلقي نفسه في الحوض و يعب من الخمر ما يجعل النقصان في الحوض محسوسا. وكان في اغلب حالاته مخمورا.

ونسب اليه انه قال:

تلَعَّبَ بالخلافة هاشمي بلا وحي اتاه ولا كتاب
فقل لله يمنعني طعامي وقل لله يمنعني شرابي

تعالى الله علواً كبيراً، وكبرت كلمة تخرج من فم هذا السكير، وويل للمسلمين من هؤلاء الخلفاء.

وهذا القذر قد استفتح يوما بالقرآن، فكانت الآية الكريمة.

«واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد»[1].

فغضب الوليد واخذ قوسه، ورشق القرآن بالسهام فمزقه وهو يقول:

تهددني بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد[2]

نعم، هذا هو مصير الانغماس في الخمرة والسكر ولذلك قال الامام الصادق(ع):

«الشراب مفتاح كل شر، ومدمن الخمر كعابد وثن، وان الخمر رأس كل اثم وشاربها مكذب بكتاب الله تعالى، لو صدق كتاب الله حرم حرامه».[3]

أخطر أخطار الذنوب

تحدثنا في فصول سابقة عن أخطار الذنوب في المجالات المختلفة، وفي هذا الفصل نتحدث عن أشد هذه الاخطار وأهولها وهو خطر الابتعاد عن الدين،

---

١ ــ ابراهيم: ١٥.
٢ ــ تتمة المنتهى، ص ٩١ ــ ٩٢.
٣ ــ الكافي، ج ٦، ص ٤٠٣.

والانحراف التام عن خط الرسالات. وانما كان هذا الخطر افظع الاخطار لانه يمسخ شخصية الانسان، ويفقده مقومات التكامل والتسامي فيه، ويحوله الى موجود غير قادر على ان يؤدي دوره الذي خلق من اجله على ظهر الأرض وبذلك يخسر كل شيء. قال سبحانه:

«والعصر، ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

لقد خلق الله الانسان و هو مجهز بطاقات خلاقة يستطيع بها ان يعمر الأرض و ينشر العدل والخير و يتحمل أعباء الخلافة في الأرض، ولكنه اذا انحرف عن طريق الله ارتكس الى أسفل سافلين، وانعدمت في وجوده تلك المقومات المميزة له بين الموجودات.

قال تعالى:

«والتين، والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات...»

(التين: ١—٦)

والأمة التي تسير على خط الله هي خير الأمم لأنها تحافظ على توازن البشرية وتصون الساحة من الافراط والتفريط، والعكس بالعكس اذ ان الأمة المنحرفة تجر البشرية الى الو يلات والدمار والحروب وتخلق على الساحة البشرية أفظع ألوان المآسي والو يلات.

قالى تعالى:

«ان الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين في نارجهنم خالدين فيها، أولئك هم شر البرية، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية»

(البينة: ٦ — ٧).

الايمان بالله يخلق في النفوس تعادلا لا تخلقه أية واحدة من المدارس الأرضية، و يسخر طاقات الانسان على طريق العدل والخير والبناء. وهذه حقيقة يقررها حديث عن الامام الباقر(ع) حيث يقول:

«انما المؤمن الذي اذا رضي لم يدخله رضاه في اثم ولا باطل. واذا سخط لم يخرجه سخطه من قول الحق، والذي اذا قدر لم تخرجه قدرته الى التعدي الى ماليس

بحق»[1].

هذا اضافة الى المعجزات التي يصنعها الايمان في خلق الانسان الصامد الصابر المضحي في سبيل الله و بالتالي في سبيل الصالح العام.

فحيثما كان الإيمان كان معه العدل والتقوى والصدق والانصاف، وأينما كان الكفر كان معه الظلم والجور والكذب والنفاق والخداع.

من هنا نفهم الخطر الذي يهدد البشرية ان جدبت ساحتها من الايمان بالله، ومن هنا أيضا نفهم مدى خطر الذنوب التي تؤدي الى الكفر والى الانحراف عن خط الله سبحانه وتعالى.

ملخص هذا القسم

١ ـــ الذنوب قد تجر الانسان الى التشكيك في المعتقدات الدينية وتؤدي بالتالي الى الكفر.

٢ ـــ سبب انجرار المذنبين الى الكفر يعود الى رغبتهم في التحلل من القيود والحدود التي تقف في وجه الانغماس في الشهوات.

٣ ـــ من الذنوب التي ركزت عليها الروايات باعتبارها مؤدية الى الكفر: اتباع الهوى، والكبر، والحسد، والخمر.

٤ ـــ ان انسلاخ الانسان عن خط الرسالات الالٓهية خطر عظيم يؤدي الى افظع المآسي والو يلات.

* * *

الى هنا تنتهي اقسام هذا الكتاب، وفيها تحدثنا عن الذنوب وآثارها على الأصعدة المختلفة، وقد ركزنا فيها على نصوص الكتاب والسنة، وطعمناها باحاديث تأريخية وقصص فيها عبرة لمن القى السمع وهو بصير.

و يبقى الحديث عن مسائل ترتبط بالموضوع كالتو بة وطريقة التخلص من الآثام والذنوب، نسأل الله أن يوفقنا لتدو ينها في كتاب مستقل.

وآخر دعوانا ان الحمدلله رب العالمين.

---

١ ـــ الكافي، ج ٣، ص ٣٣٠.

فهرست عقابِ الذنوب

منظمة الاعلام الاسلامي
معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
طهران- ص.ب- ١٣١٣/١٤١٥٥
الجمهورية الاسلامية في ايران